
روايات الهلال
مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل
شريف حتاتة
عطر البرتقال الأخضر

روايات الهلال

سلسلة شهرية لنشر القصص العربى والعالمى تصدر عن مؤسسة دارالهلال

رئيس مجلس الإدارة
عبد القادر شهيب

رئيس التحرير
مجدى الدقاق

المستشار الفنى
محمد أبو طالب

المدير الفنى
محمود الشيخ

مدير التحرير
محمد رضوان

سكرتير التحرير
محمد عبد العظيم

الإصدار الأول - يناير ١٩٤٩

العدد ٦٩١ يوليو ،تموز ٢٠٠٦ م - جماد آخر ١٤٢٧هـ - أبيب ١٧٢٢ق

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها مصريا داخل (ج.م.ع) تسدد مقدما نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٥ دولارا - أمريكا وأوروبا وآسيا وأفريقيا ٥٠ دولارا - باقى دول العالم ٦٠ دولارا.

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دارالهلال .

بريد الاشتراكات

Email : subscription_dep@yahoo.com

الإدارة

القاهرة:
١٦ شارع محمد عزالعرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).

المكاتبات:
ص.ب: ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا: المصور - القاهرة ج.م.ع.

تلكس:
Telex 92703 hilal u n

فاكس:
FAX: 3625469

البريد الإلكترونى:
darhilal @ idsc. gov. eg

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٠٠٠ فلس - الكويت ٢٥٠ فلس - السعودية ١٢ ريالا - البحرين ١.٢ دينار - قطر ١٢ ريالا - الإمارات ١٢ درهما - سلطنة عمان ١.٢ ريال - اليمن ٤٠٠ ريال - المغرب ٤٠ درهما - فلسطين ٣ دولار - سويسرا ٤ فرنكات.

عطر البرتقال الأخضر

شريف حتاتة

دار الهلال



الغلاف : محمد طمان

الخطوط : محمد العيسوى

الإشراف : على حامد

الفصل الأول

تردد فى أذنيه صوت يشبه رنين جرس الباب . تعود أن يسمع أصواتا كالرنين تأتيه من ورش الخردة المحيطة بالعمارة يفككون فيها هياكل السيارات، والشاحنات القديمة، فتجاهل الصوت . عاد يطل من نافذة الشرفة على قرص الشمس الأحمر يسقط فى الغيوم الداكنة تجمعت فوق المدينة .

كان جالسا على الشرفة كعادته كل يوم ينتظر قدوم الليل . اليوم يوم الجمعة والشغال فى إجازة . بعد قليل سيقوم ليتناول عشاءه : جبن أبيض ، وخبز محمص ، وخيار أو جرجير ، وليتابع الأخبار على قناة الجزيرة . عند الساعة الحادية عشرة والنصف تماما سيتوجه إلى الحمام ليغتسل ، ويدعك أسنانه بالفرشاة ، والمعجون ، ثم سيرقد على السرير ويمد يده باحثا عن يدها فى الظلام.

جاءه الرنين مرة أخرى أكثر إصراراً . أنزل قدميه من المقعد المصنوع من الخيزران ، وقام . على الرخام الأسود للمنضدة ، انتصبت آنية فخارية فيها زهور ابتاعها قبل يومين من صبى صغير وقف بها فى الشارع أمام "السوبر ماركت" . سقطت أوراقها البرتقالية اللون فصارت تتفرس فيه بعيونها الصامتة .

اجتاز الصالة إلى باب الشقة. لابد أنه المكوجى يحمل قمصانه ، أو حارس الأمن جاء لتحصيل الرسوم . فتح الباب دون أن يطل من العين

السحرية . قرب المصعد كانت تقف امرأة كأنها قررت الانصراف بعد أن طال انتظارها. أحست بالباب يفتح فالتفتت إليه . لمح وجها خمري اللون يحيطه شعر أسود ، وأنفا مربعا مشاكسا يطل من تحت عويناتها. حول شفتيها ترددت ابتسامة تتحسس طريقها إليه . قالت :

«آسفة أرجو ألا أكون أقحمت نفسي عليك . أنا "سحر بدوي". اتصلت بك منذ يومين فحددت لي موعداً هذا المساء في الساعة السابعة والنصف".

ظل صامتا يحاول أن يتذكر ثم قال :

"آه... الحقيقة أنني نسيت الموعد، لكن... تفضلي"

أفسح لها الطريق . اجتازت الممر إلى الصالة ، ولحق بها بعد أن أخرج بريداً تراكم في الصندوق المثبت إلى جوار الباب . وجدها واقفة في الصالة الواسعة تمر بعينيها على عناوين الكتب المرصوصة على الرفوف الخشبية السميكة للمكتبة . اقترب منها فالتفتت إليه بحركة سريعة كأنها أحست أنها ضُبطت وهي تتطفل على أشياء خاصة به . قالت معتذرة :

"لا أستطيع مقاومة إغراء الكتب".

تأملها دون أن يعلق . ترتدي قميصا من القطن الأبيض ، وبنطالا كحليا التصق قماشه بساقيها . من أعلى الكتف تدلت حقيبة يد كبيرة من الخوص المضفور. سألها :

"أتفضلين الجلوس في الصالة حيث التكييف أم على الشرفة؟"

نظرت حولها .

"أفضل الشرفة".

أشار بيده فسبقته . نظرت إليه كأنها احتارت أين تجلس فقال :

"هنا إلى جوار الشجيرة ستكتشفين النيل كله".

توقفت عيناه على خصلة فضية لمعت فى ضوء الشمس الغاربة. حملق فيها لحظة قبل أن ينتزع نظراته بعيداً عنها. سألها :

"ماذا تشربين يا أستاذة "سحر"؟

"لا شئ . شكراً ".

قال :

"كنت على وشك أن أصنع لنفسي قدحاً من الشاى يسمونه "شاى تخسيس"، وهو مصنوع من أعشاب مختلفة» .

ترددت لحظة .

"يمكن أن أجربه".

"هل تحبين سكراً أو لبناً معه؟"

"لا... شاى فقط ".

عاد بعد قليل حاملا صينية معدنية وضع عليها إبريقا وقدحين فارغين من الصيني الأزرق ثم غاب فى الداخل مرة أخرى ليعود وفى يده طبق فضي من المنين الأسمر اللون . صب لها من الإبريق فى القدح فرفعته إلى شفتيها ورشفت منه . قالت :

"منعش... وطعمه حلو . هل ينقص من الوزن فعلا ؟ "

"لست متأكداً من هذا . ربما يطرد السوائل الزائدة فى الجسم . لكن هذا يحتاج إلى تناول أكثر من ثلاثة أقداح كبيرة فى اليوم".

اجتازت جسمها الممتلئ قليلا رعشة فأخرجت شالا مطرزا من

حقيبتها ، ولفته حول كتفيها. رفعت العوينات التى كانت ترتديها ووضعتها فى جراب أخرجته من الحقيبة ثم أعادته إليها. حول عينيها لمح دائرتين من السواد المشوب بزرقة كأنها سهرت الليل . مدت يدها للقدح مرة أخرى وشربت منه برشفات سريعة . قالت :

"الجو أصبح فيه برودة . أتأثر من البرد ومن الحرارة بسهولة".

.ظل صامتا كأنه يفكر فيما قالته ، فنظرت إليه فى تساؤل . قال :

"متأسف لكنى لم أعد أذكر الغرض من هذه الزيارة ".

"أنا أعمل في معهد البحوث الاجتماعية، وأقوم حاليا بعمل بحث عن حياة الكتاب الروائيين".

اعتدل فى جلسته . تطلع من زجاج الشرفة إلى زورق انساب فوق النيل، وانعكست فيه أنواره . تلاقت عيونهما فبدا له أن لون عينيها تغير ، أن فيهما ضوءاً بنفسجياً تغلب على سواد المقلتين . قال :

"توقفت عن الكتابة منذ مدة ولن أفيدك فى شئ".

"أعرف هذا . تتبعتك منذ أن كنت طالبة فى المدرسة الثانوية . قرأت كل ما كتبته. لم أفهم لماذا توقفت فجأة . منذ روايتك الأخيرة لم أقرأ لك شيئا".

صب لنفسه قدحا من الشاى سقط جزء منه خارجه على الصينية . حملق فيه ثم تدارك:

"هل تبغين فى قدح ثان ؟"

" لا مانع لدى ".

صب لها فى القدح وغطى الإبريق بشئ يشبه القبعة المستطيلة التى تم حشوها بالقطن . قال :

"عادة ورثتها من أمي . تحافظ على حرارة الشاي".

ألقت على الغطاء نظرة فيها ود .

"أمك كانت مصرية ؟"

"لا... كانت أيرلاندية".

"وأنت. أين ولدت ؟"

«في «إسنا». كان أبي مهندسا للري» .

ثم كأنه يمهد لإنهاء المقابلة . "للأسف لن تجدي عندي ما يمكن أن يفيدك في البحث الذي تقومين به. نسيت كل ما يتعلق بالكتابة".

حملقت في وجهه بنظرة ثابتة فأدار وجهه بعيدا عنها وأخذ يقضم في قطعة من المنين.

"أريد أن أعرف لماذا توقفت عن الكتابة".

التوت شفتاه وتحرك في مقعده كأنه يتأهب للقيام . قال في صوت كادت ألا تسمعه.

"ماذا تريدين مني ؟ ليس عندي ما أستطيع أن أقوله".

"أنا باحثة. أسعى للمعرفة ، للفهم، أسعى لمعرفة ما وراء الكلمات ، وما وراء الصمت".

ضحك ضحكة جافة خالية من المرح:

"لا... جئت بدافع الفضول. جئت لتتفرجي على".

قالت :

«يبدو أنك لا تريد أن تواصل معي . لكن قبل أن أنصرف أريد أن أسألك سؤالا».

ظل صامتا كأنه لم يسمعها .

قالت :

"ألا تريد أن تعرف ما هو السؤال ؟"

لم يرد .

قالت :

"لم ترد . مع ذلك سأسألك . هل يستطيع الإنسان أن يعوض ما فرط فيه من قبل؟"

حملق في وجهها ثم قال :

"لا أريد أن أنشغل بأسئلة تمت إلى الماضي . ما مضى انتهى بالنسبة إلي".

"كيف تقول هذا وصناعتك الكتابة ؟"

تسللت إلى صوته نبرة فيها غضب:

"كانت صناعتي هي الكتابة، لكني لم أعد كاتبا. توقفت... توقفت. والآن أرجو المعذرة فلدي موعد آخر".

قبل أن يضيء السهم الأحمر فوق باب المصعد قالت:

"أتعرف. أنا مثل المرأة التي وصفتها في روايتك. أعشق غرس أسناني في قشرة البرتقال الأخضر".

ظل ساكنا كأنه يفكر فيما قالته. قبل أن تخطو داخل المصعد التفتت إليه فتنبهت إلى أن عينيه بنية اللون دافئة. قال:

"احترسي عندما تجتازين الشارع. المرور في هذه الساعة خطر للغاية".

★★★★

الفصل الثانى

صوتها يأتيه وهو راقد في السرير ينتظر أن يجيئه النوم. أو وهو سائر في شوارع المدينة. تتلاشى كل الأصوات من حوله إلا صوتها له رنين مثل الناى يعلو فوق آلات العازفين.

كان قادرا على التقاطه في أى مكان فيتجه إليه. إذا لم يجئه صوتها يبحث عن رأسها، فشعرها مثل صوتها يلتقطه من بعيد وهى في قاعة للمؤتمرات، أو سائرة في مظاهرة، أو خارجة وسط الجمهور في صالة "السيد درويش". يلمح خيوطه الفضية في السواد الغالب عليه تلتقط أشعات الشمس بالنهار، والقمر في الليل. لكن في الأشهر الأخيرة فقد لمعانه.

في تلك الليلة كان راقدا على دكة أمام إحدى العمارات. قال له الحارس: "يبدو عليك التعب الشديد. استرح قليلا."

في الصباح كانت قد أعلنت الحكومة قرارها برفع الأسعار فهبط الناس إلى الشوارع في انتفاضة هزت النظام. كان السادات في "أسوان" عندما أبلغوه بالموقف. استقل طائرته الخاصة وعاد إلى القاهرة، ثم أصدر أوامره بنزول الجيش" حفاظا على الأمن العام".

استلقى على الدكة وعيناه نصف مغمضتين، وفجأة خرجت من جوف الليل. وقفت على بعد قليل كأنها تحاول أن تتعرف على الكتلة الغامضة الراقدة قرب باب الكنيسة. رآها مرتفعة القوام في الثوب

الطويل التف حول جسمها. مرت إحدى السيارات ببطء بين الفلول السائرة فأضاءت هالة من الشعر وعينين واسعتين تلمعان في الظلام.

كان عائدا بعد سنة قضاها في مصحة "كارلوفي فاري". توسط "حلمي طرخان" رئيس تحرير المجلة التي كان يكتب فيها يومياته في إعارته "لمؤسسة الدراسات الاشتراكية" في "براغ" كوسيلة لتغطية مصاريف العلاج. قبل أن يغادر مستشفى الحميات مر عليه الطبيب المشرف على علاجه. طلب منه أن يوضح له الحالة التي يعاني منها وألا يخفي عنه شيئا. خلع الطبيب عويناته عن وجهه الأسمر النحيل وفحص أظافره قبل أن يقول:

"أنت تعاني من الإصابة بفيروس يسكن في خلايا الكبد. أحيانا يظل راكدا لمدة سنين لكنه قد ينشط ويغزو خلاياه لتصبح عاجزة عن التخلص من السموم التي تنتج عن العمليات البيوكيمائية الضرورية للحياة، فتتراكم هذه السموم وتؤثر على باقي أعضاء الجسم. وهذا يفسر الهزال الذي أصبحت تعاني منه. العلاج يهدف إلى محاصرة هذا النشاط، وإيقافه. الدكتور "بافل" الذي سيتولى علاجك متخصص في الفيروسات التي تنتشر في المناطق الاستوائية، وشبه الاستوائية. عمل في إفريقيا، وفي أمريكا الجنوبية سنوات قبل أن يستقر في مصحة "كارلوفي فاري".

مد يده إلى كوب من الماء كان إلى جواره وشربه عن آخره. لم يجد ما يقوله، فقام وشد على يده ثم رقد. تتبع جسمه النحيل وهو يتجه إلى الباب. أحس كأن فصلا من حياته انتهى، أنه منذ الآن يواجه المجهول. دفن وجهه في الوسادة ورفع الغطاء. رأى قدمي أمه يوم أن ماتت وحيدتين حزينتين تتلامسان عند طرف السرير. بعد شهر من

وفاتها كتب يوميات سماها "غياب". وقعت صدفة على عدد مجلة "البرارى" التى نشرها فيها. قرأتها وهما جالسين على مائدة الإفطار. رفعت رأسها عن المجلة وسرحت. عندما التفتت إليه لمح عينيها مثل سطحين من الزجاج الداكن يلغيان وجوده وكأنها لم تعد تراه. قالت:

"لم تعرف كيف تكتب عن أقرب الناس إليك".

أحس كأنها لطمته، أنها مغرورة، أحادية فى أحكامها، لا تراعى مشاعر الآخرين. بلع بقايا الشاى الموجودة فى فنجانه. تركها حيث كانت تجلس وذهب إلى نادى الشباب. جلس فى ركن منزو أمام ملعب كرة السلة ثم قام واتصل "بنرمين الصباغ".

أخرجوه من المستشفى فعاد إلى شقته فى شارع "نوبار" ليعد حقائبه. وضع فيها كتابات لم يكملها وعدداً من الروايات الصادرة حديثا. قبل أن يرحل زاره ابن عمه ضابط في الجيش وصل إلى رتبة العقيد ثم فصلوه لأنه تزوج من امرأة أمريكية تعرف عليها فى "أسوان". قبل أن تحضر إلى مصر كانت قد انضمت إلى "أمة الإسلام" وأصبحت من المقربات إلى زعيم الحركة "موسى فرخان".

استقبله فى الصالة وجلسا يحتسيان قدحين من الشاى بالنعناع. قبل أن ينصرف الرجل مسح على أنفه الأفطس ثم قال: "ما أصابك سببه الكلام الشاذ الذى دأبت على كتابته فى المجلة الملعونة التى تنشر فيها يومياتك. اتق الله يا أخى وارجع عما أنت فيه. وخذ معك بعض التواشيح ستدخل على قلبك السلام وتعدك للقاء ربك، فهذا هو مصيرنا جميعاً".

كتم غيظه وصمت طويلا حتى يشعر زائره أن وقت الانصراف قد جاء. ودعه عند الباب وعاد إلى الصالة. وضع «شريطاً» من موسيقى

"ثيوبوراكيس" في جهاز التسجيل، وصب لنفسه كأسا من النبيذ المصنوع من عنب "الموسكات" كان يحب مذاقه.

في المصحة أخضعوه لنظام صارم. كانوا يغذونه بالسوائل، والعصائر، وبمشروبات دافئة مصنوعة من الأعشاب. بعد شهر صاروا يطعمونه بخضروات غير مطبوخة، وفواكه استوائية مثل "الليتشي" "والبابايا" "والأناناس"، "والدوران". أعجبه "الدوران" بالذات فيه شبه من "الأناناس"، وله قشرة سميكة مثله لكن داخلها لحم طرى أصفر اللون رائحته قوية نفاذة. عندما يأكل الواحدة منها يشعر بالرغبة تصعد فى جسمه كأنها تعيد إليه الحيوية التى فقدها. لاحظت الممرضة عليه علامات الانتعاش فسألته. قال: "الدوران" يثير فى رغبات كدت أن أنساها". واستقرت عيناه على صدرها لحظة. ضحكت وقالت: "حسنا .. هذه أخبار سارة لكنك ستضطر إلى تأجيلها لوقت آخر" . ثم وضعت ميزان الحرارة فى فمه بسرعة قبل أن يسترسل فى الكلام.

كانوا يصرون على قيامه بتمرينات رياضية مختلفة ، بالمشى مسافات أو بركوب دراجة هوائية لمدد تزايدت بالتدريج. بعد شهرين أضافوا إليها السباحة فى مياه البحيرة، والصعود على جبل كان يبعد مسافة كيلومتر عن المبنى الذى استقر فيه. أعطوه بعض الحقن، وحبوب صفراء اللون صغيرة الحجم أخبره "البروفيسير بافل" أنها جاءت حديثا من الصين. قال له: "ربما لا تنجح فى قتل الفيروس لكن قد تنجح فى حصاره والقضاء على قدراته. لحسن الحظ هو فيروس كسول. لكن المشكلة هو أن السموم المتراكمة من القصور فى أداء الكبد تؤدى فى حالات قليلة إلى التأثير على المراكز العليا فى مخ المصاب بالفيروس، عندئذ قد يعيش ما يتبقى له من عمر فى حالة شبه

نباتية يعجز فيها عن ممارسة نشاطه العقلي المعتاد."

سأله:

"ماذا تقصد؟"

"يعنى مثلا إذا حدث هذا لك لن تستطيع أن تتعامل مع الكلمات، أن تكتب، وأن تعبر عن أفكارك."

حملق في وجه "البروفيسيز بافل" يقف عند طرف السرير قصير القامة، مربع الجسم في عينيه الزرقاوين بريق يشع من تحت حاجبيه البارزين. جاءه إحساس غريب كأن الرجل يتحدث عن شخص آخر غيره. أخذ يتأمل الغابات الممتدة خارج النافذة، لمعت أشجارها في ضوء الشمس. انتزعه صوت "البروفيسير" وهو يسأله:

"هل تريد أن تستمر في العلاج؟ فرص النجاح فيه هي الغالبة لكن توجد المخاطر التي أوضحتها لك".

"أعطني مهلة للتفكير". صمت لحظة ثم قال: "أريد أن أسألك سؤالا. هل تؤمن باستمرار روح الإنسان بعد الموت؟"

قال:

"لا، يا عزيزي "يوسف"، لا يوجد شئ بعد الموت سوى جسم يتحلل في التراب، ليدخل في تركيبة كائن آخر".

"لكن إذا كان هذا صحيحا ألا يكون الموت مخيفا؟".

انطلقت منه ضحكة فيها مرح. حملق في وجهه ثم قال:

"سأحكي لك حكاية. أمي عاشت حتي أصبح عمرها اثنين وتسعين سنة. في مراحلها الأخيرة كانت تتحدث كثيرا عن خوفها من الموت. فلما سألتها لماذا تخافه بعد أن عاشت كل هذه السنين، قالت: "لأن

حياتي كانت فارغة لم أفعل بها شيئا". فأدركت أنها ظلت متمسكة بالحياة لعلها تعوض شيئا مما ضاع منها".

بعد هذا الحديث بيومين كانا يتنزهان في الحديقة قبل العشاء. كانت هذه هي عادة "البروفيسير" مع مرضاه يمارسها عندما تتاح له فرصة لذلك. اقتربا من جدول ينحدر من الجبل وجلسا علي جذع شجرة عجوز جفت فسقطت علي الأرض. صارا يتأملان المياه وهي تقفز فوق الصخور فيتطاير رذاذ وردي اللون في أشعات الشمس الغاربة. التفت إليه «البروفيسير بافل»، وقال:

"لم تقل لي ماذا قررت. لابد أن تستقر على رأي حتي نقوم بعمل الترتيبات اللازمة".

"سأستمر في العلاج إذا وعدتني بأن تظل تشرف عليه".

بين الحين والآخر كانت تصله بطاقة بريدية منه يسأله فيها عن أحواله، وعما يكتبه، لكنه توقف عن مراسلته عندما وجده لا يرد عليه. فماذا يستطيع أن يقول سوى بضع كلمات مكررة لا تعني شيئا؟ أيامه تمر مثل موجات البحر على شاطئ مهجور يتوالى سقوطها الرتيب وقلبه يسجلها كالعداد. أفلت من الفيروس القاتل لكنه لن يفلت من حصار الزمن يحفر في لحمه الحي.

في تلك الليلة سار مع الجموع في شوارع المدينة. لم تتوقف مواكبها إلا عندما أعلن السادات سحب القرارات. قبل أن يبزغ ضوء الفجر غلبه التعب فاستسلم لنوم متقطع فوق الدكة التي أخلاها له الحارس. لم يتنبه إلى صوتها تسأله إن كان يمكن أن يفسح لها مكانا. أعادت السؤال عليه. سمعها في المرة الثانية فقام من رقدته. وضعت الحقيبة التي كانت تحملها على الأرض وجلست وظل هو واقفا ينظر

إليها. بعد لحظة مرت سيارة فأضاءتها الكشافات. لمح هالة من الشعر وعينين واسعتين. جاءه صوتها ارتفع رنينه فوق الضجيج.

"الدكة يمكن أن تسعنا نحن الإثنين".

جلس عند الطرف الآخر بعيدا عنها. التفتت إليه بعد فترة وخاطبته قائلة:

"أتريد أن ترقد؟"

"لا... استرحت بما فيه الكفاية". ثم أضاف. "المظاهرات لازالت مستمرة ولا أظن أن الناس سيتوقفون عنها إلا إذا تراجع السادات. أسمعت هتافاتهم؟".

"نعم، سمعتها". ثم سألته. "هل سنبقى هكذا جالسين على هذه الدكة؟".

قال:

"سأعود إلى بيتي لأنام. وأنت؟"

"أنا أسكن في "حلوان". وأعتقد أن المواصلات متوقفة".

صمت لحظة.

"لا يمكن أن تبقى هكذا في الشارع. أنا ساكن في شارع "نوبار" قرب "لاظوغلي". يمكننا أن نمشي المسافة حتى هناك وأن تستريحي عندي إلى أن تجدي وسيلة للذهاب إلى "حلوان"».

"لا... لا داعي لهذا. عندي صديقة تسكن على مقربة من بيتك. يمكن أن أسير معك حتى منزلها. الأرجح أنني سأجدها هناك".

وقف ومد يده .

"أعطني الحقيبة لأحملها عنك".

قفزت واقفة بحركة سريعة، وأمسكت بحقيبتها قبل أن تصل يده إليها. ثم قالت:

"تعودت أن أحمل حقائبي بنفسي. هيا بنا".

لم يتكلم أحد منهما حتى وصلا إلى كوبرى "قصر النيل". كان التعب قد أعياهما. لكن وهما يجتازان الكوبرى أعاد إليه هواء النيل، وضوء الفجر شيئا من حيويته المفقودة. تنبه إلى أنها ممشوقة القوام، حول خصرها الرفيع ربطت حزاما أحمر اللون أكد امتلاء الجزء الأسفل من جسمها، أنها ترتدى حذاءً بلا كعب تدب به على الأرض وهى سائرة. توقفت لحظة لتنقل الحقيبة من يد إلى يد فأضاء المصباح خصلة بيضاء عريضة فى شعرها. عندما وصلا نهاية الكوبرى قال: "لم نتعارف. أنا اسمى "يوسف البحراوى".

ضحكت .

"وأنا اسمى.. "سحر".. "سحر العمرى" " ثم مدت إليه يدها فأحس بدفئها يسرى إليه.



الفصل الثالث

قبل أن تفكر فى زيارته مرت على رئيسة المعهد "نيرمين الصباغ". سمعت أنها تعرفه فأرادت أن تحصل منها على بعض المعلومات قبل أن تذهب إليه. عندما سألتها حملقت فى الملف المفتوح أمامها ثم قالت إنه لا يرحب بالزوار. إنه منذ أن اختفت زوجته انعزل عن العالم تماما. ثم أغلقت الملف الذى كانت تقرأ فيه وأخذت تفحص بعض الأوراق المرفقة به.

فوجئت بهذه المعلومات فصمتت لحظة ثم سألت وقد تسللت إلى صوتها علامات الاندهاش.

"زوجته؟ اختفت؟"

استمرت الرئيسة تقرأ فى الملف كأنها لم تسمعها لكن بعد قليل أزاحته جانبا وقالت:

"نعم اختفت".

"إلى أين؟"

"لا أحد يعرف. تعددت الإشاعات. قالوا إنهما اتفقا على الانفصال، وإنها سافرت إلى معهد "الهيج" فى «هولندا» لتقوم بالتدريس هناك".

"هل كانت تدرّس فى «مصر»؟"

"لا... تخرجت من كلية الآداب قسم علم النفس وقامت بعمل رسالة عن النساء اللائى يقتلن الرجال رفضتها اللجنة المشرفة عليها".

"هل اطلعت عليها؟"

قالت بشئ من الحدة .. "الأزهر أوصى بعدم تداولها فظلت محبوسة فى الأدراج".

"لكن لماذا تقولين إنها اختفت؟"

"لأن لا أحد سمع عنها، أو التقى بها هناك".

"ربما غيرت اسمها، أو تزوجت مرة أخرى".

انفرجت شفتاها عن أسنان ناصعة البياض. هزت كتفيها ثم قالت: "على أى حال تعددت الإشاعات".

"مثل"؟

"أنه قتلها وأخفى جثتها. زوجى يقول إنه احتمال لا يمكن استبعاده. فكم من الجرائم ترتكب فى بلادنا لا يتم اكتشافها". سألت :

"لكن هل حققوا معه أو احتجزوه "؟.

"لا... أنا شخصيا لا أصدق أن هذا كان يمكن أن يحدث ".

زحف ظل من الحزن على وجهها لكن بعد قليل لمعت عيناها الخضراوان. خطر فى بالها .. هذه المرأة خطيرة. سألتها:

"هل كنت تعرفينه؟"

"من بعيد. كان يتردد على نادى الشباب. وكنت أنا مدربة فريق الباسكت للبنات ثم استطردت "لكن راجت إشاعة أخرى استهوتنى

تقول إنها وقعت في حب شاب جزائري يصغرها بعشرين سنة، كون فرقة أعضاؤها جاءوا من مختلف البلدان واشتهرت بالمزج بين أنواع من الموسيقى الحديثة، فافتتنت بألحانه، وانضمت إلى فرقته لتجوب العالم. في السنة الماضية ابتاع أولادي بعض اسطواناتها. ومنذ ذلك الحين لم يكفوا عن سماعها. يقولون إنها خليط من "الريجي" "والراي" "والمامبو" "والفنك" وأشياء أخرى، ويصرون أنها كتبت كلمات الكثير من ألحانها باسم مستعار. جمعوا جميع اسطواناتها، ولم يستطع أبوهم اقناعهم بمواصلة الصلاة إلا عندما سمح لهم بإقامة حفل شهري يرقصون فيه مع أصدقائهم على أنغامها. عندما أراهم يرقصون أتساءل في نفسي ترى أين راحت؟ مسألة غريبة فعلا أن تختفي هكذا دون أن تترك أثراً وراءها. رجل مثله كان يستحق امرأة من نوع آخر ترعاه".

"هل التقيت بها؟"

"لا.. إطلاقا".

سمعت نقرا على الباب فقالت بسرعة:

"لم تخبريني ما اسمها".

ظلت صامتة لحظة ثم قالت:

"سحر العمري".

بعدها بأسبوع كانت جالسة في النادي اليوناني صعدت إليه قبل أن تذهب لمشاهدة فيلم "آلام المسيح". في ذلك اليوم استولى عليها إحساس بالضجر جعلها لا ترغب في العودة إلى البيت والجلوس أمام

الكومبيوتر لتستكمل الفصل الذى بدأته منذ أسبوع، فقررت أن تذهب لمشاهدة الفيلم، وأن تصعد إلى النادى لتبقى فيه إلى أن يحين موعده. طلبت زجاجة من البيرة لتطفئ عطشها فجاء بها النادل وصبها لها فى الكأس. قبل أن ترفعه إلى شفتيها لفت أصابعها حوله مستمتعة بملمسه البارد، وفى تلك اللحظة مر "يوسف البحراوى" على مقربة منها، وتوجه إلى مائدة بعيدة.

كان النادى خاليا من الرواد في هذه الساعة المبكرة، تعودوا أن يصعدوا إليه بعد الساعة التاسعة. مر بعض الوقت دون أن تتعرف عليه. كان قد أخرج كتابا من جيب سترته الصيفية الواسعة، طواها على المقعد القريب منه، وطلب مثلها زجاجة من البيرة أخذ يرتشف منها مباشرة ويقرأ. وحيث أنه كان الوحيد الذى شاركها المكان، ولم تكن لديها رغبة لفعل أي شئ صارت تتأمله. شعره أسود غزير، وملامحه مستقيمة. رفع عويناته ليقرأ ومال إلى الأمام فبدت كتفيه محنيتين. قدرت أنه تخطى الخمسينات من عمره. لم تكن ترى وجهه جيداً لكن شيئا فى جلسته، فى ملامحه، والانحناءة الخفيفة فى ظهره أوحى إليها بأنها رأته من قبل، وفجأة تذكرت صورة أخذت له جالسا فى أحد المؤتمرات وعلى وجهه ابتسامة غامضة. وضعتها فى ملف مع اليوميات الخاصة به جمعتها من المجلات والصحف، وإلى جواره على الرف صفت رواياته الثلاث ابتاعتها من على سور الأزبكية.

راودتها فكرة أن تقوم لتتحدث إليه. لم يتغير كثيرا منذ أن التقطت الصورة. بدا منسحبا فى نفسه كأنه يقول: "أريد أن أبقى وحدى". خطر فى بالها أنه جاء مثلها ليتناول كأسا من البيرة، ويستنشق

النسيم على السطح بعيدا عن زحمة الناس، وضجيجهم. فقررت أن تتركه، لكنها في الوقت نفسه حسمت أمر اللقاء. ستتصل به باكر ليحدد لها موعدا. قابلت عشرات الكتاب من قبل، وتحدثت معهم. أما هو فلم تقترب منه رغم إحساسها برغبة في التحدث إليه، في معرفته عن قرب، في سؤاله لماذا توقف عن الكتابة.

اتصلت به في اليوم التالي، عندما طلبت منه أن يحدد لها موعدا لتلتقي به وتسأله بعض الأسئلة المتعلقة بالبحث الذي تعده عن حياة كتاب الرواية سكتت السماعة. ظنت أنه لم يسمعها، أو أن الخط انقطع فسألته:

"أسمعتني؟"

قال:

"نعم سمعتك". وصمت من جديد. جاءها صوت خروشة، ثم قال:

"لم التقط اسمك بالكامل".

"اسمي "سحر بدوي"".

"بدوي؟"

"نعم... "بدوي"."

قال:

"بعد باكر. في الساعة السابعة والنصف. هل يناسبك؟"

"نعم يناسبني. لو سمحت اعطني العنوان".

"شارع الشيشيني رقم ٥ بشبرا، الدور السابع. على ناصيته توجد

محطة بنزين "إسو" واجهتها على الكورنيش".

أعادت السماعة إلى مكانها. لماذا يهتم باسم أسرتها؟ سمعت أنه كان من أسرة غنية. أما هى فمن أسرة فقيرة. ألقت بشعرها إلى الوراء ونظرت فى المرآة كأنها تتحداه. ستسوى شعرها قبل أن تذهب إليه. لكن لماذا تسويه؟ قفز ذهنها إلى الوراء سنوات. فى تلك الأيام كان شعرها طويلا توثقه في ضفيرة. رأت نفسها فى الغيط ممسكة بالمنجل لتحش البرسيم. تمسح العرق فى طرف جلبابها وتعود إلى الحش. لا تتوقف ذراعها عن حركتها رغم الألم الذى تشعر به فى كتفها. لا تتوقف إلا إذا توقف أبوها.. لا تريد أن تسمع صوته الأجش يزعق فيها.

«مالك يا بت. ما تعمليلك همة يا بنت الشرموطة. حنقعد نحش طول النهار واللا إيه؟!"

"أمي مش شرموطة. لسانك زفر كده ليه؟!"

ينقض عليها ليضربها. أمها تحول بينه وبينها إن كانت موجودة. لكن إذا غابت تعود إلى البيت بكدمات على جسمها جزاء تحديها له ولأنها كتمت البكاء وظلت صامتة لا يصدر عنها صوت.

فى ذلك الوقت كانت لا تزال صبية. جسمها كالسلك المشدود لم تظهر فيه بعد التدويرات الأنثوية. الدار التى سكنوا فيها تقع عند أطراف "شبرانتنا" البعيدة استقروا فيها بعد نزوحهم من بيت جدها فى "دسوق" نتيجة خلافاته مع أبيها. عاشوا مدة شهر فى عش من البوص يقضون حاجتهم فى ظلام الليل ثم يستحمون فى الترعة بعيدا

عن أعين الناس. أثناء هذا الشهر قاموا ببناء الدار، والزريبة. صنع أبوها «قمينه» من التفل، والقش، والطين. دكوا المعجنة بالأقدام. هو، وأمها، وهي، وأخوها كان يصغرها بسنة . كانت تستمر في الدك بعد أن توقفوا جميعا بما فيهم أبوها. تتوسل إليها أمها. "استريحي يا ضنايا. حتموتي نفسك ليه؟" فتنظر إلى الأفق كأنها لم تسمعها، وتستمر تغرس قدميها في الطين.

الآن عندما تخلع حذاءها وتتأمل قدميها بعد يوم من المشي في شوارع المدينة تتذكر أيام المعجنة. ما زالتا قويتين مفرطحتين، ومازالت كعباهما مشققتين والجلد عليهما سميك.

بعد أن دكوا المعجنة صنع أبوها إقريزا من الخشب فأصبحت تشاركه في ضرب الطوب، يرصونه صفوفا، ويتركونه في الشمس ليجف... شاركوا سويا في إقامة البيت ما عدا أختها الصغيرة، عيناها كالشمس السائلة بين جفونها. كانت تقوم بصب الماء في المعجنة، وكلما تبللت قدماها تكركر بالضحك فيتوقف أبوها ويزعق فيها. "يا بت الشرموطة. بتضحكي علينا؟ أما بجحة صحيح"، فتبكي بكاءً مراً يتحول إلى عويل إلى أن تلحق بها لتحملها، وتهدهدها فتعود إلى الضحك من جديد.

بنوا جدران البيت والزريبة. داخل البيت حوش داخلي واسع، وغرف للنوم وللخزين، وفرن، وحصير ينامون عليه، إلى أن قامت أمها بصنع مراتب من فضلات القماش كانت تخيطها.

في السنة الأولى غطوا السقف بالبوص، والخوص، وأجولة من

الخيش، وسعف النخيل، ثم سدوا الفجوات في الجدران بطبقة من القش والطين. لكن عندما جاء الشتاء سقط المطر من فجوات السقف . في الربيع أزاحوا الأشياء التى غطوه بها ووضعوا مكانها ألواحا من خشب السنط والنخيل حرصوا على تلبيس الفواصل بينها. قام أبوها بتقطيع ونشر الخشب وحده. تتراءى لها ملامحه الغليظة تهدلت من فرط المجهود وانهمر منها العرق على لحيته وشاربه فتدلتا فى انكسار. ماتت أمها وأصبح الآن وحيدا . فى لحظات تشفق عليه، لكن فى تلك الأيام لم تحمل في قلبها إزاءه سوى الكراهية.



الفصل الرابع

هبط بقفزات سريعة على السلالم تسرب إليها من المنور بصيص من النور. تعودت قدماه تفادى الدرجات الرخامية المكسورة فالعقار رقم ٢٢ بشارع "نوبار" كان قديما. أقامه الخواجه "فازيلاكس" منذ أكثر من نصف قرن وباعه إلى ضابط من الضباط الأحرار قبل أن يرحل إلى اليونان. المصعد فيه دأب على التوقف بين الأدوار كتلة غامضة معلقة تتدلى منها الأحبال كالمشنقة تنتظر ضحاياها.

مرق أمام حجرة البواب المفتوحة لمعت كعباه الشاحبتان فى سوادها. سار فوق الرصيف خطوات وتوقف عند كشك يبيع الجرائد. على صفحتها الأولى صورة كبيرة للرئيس يقف إلى جواره "بيجين". يداهما مرفوعتان متشابكتان فى الهواء، وأمامهما صفوف من الرجال والنساء يصفقون. حياه صاحب الكشك قائلا:

"نهارك فل يا باشا. جرنانك اهه شايلهولك قبل ما يخلص. دا النهارده يوم مفترج. من هنا ورايح مفيش حرب. حنخلص من الفلسطينيين ولاد الكلب دول اللى صرفنا عليهم دم قلبنا. واللا إيه رأيك يا أستاذ؟"

حملقت فيه عويناته السود. على جبهته أسفل "الكاسكيته" برزت "زبيبته" خشنة، زرقاء. يرتدى "تى شيرت" أصفر اللون عليه كتابة بالأحرف الإنجليزية تقول "تراى مى هانى" أى جربينى يا حلوة.

فى الصباح وهو يتأهب لمغادرة الشقة أسندت "أم صلاح" المكنسة على الجدار واقتربت منه. جاءه أزيز أنفاسها وهى تهمس فى أذنه.

"خد بالك من صاحب كشك الجرائد "يا سى يوسف". مش عايزه أظلمه لكن سمعت انه بيتاجر فى "السخام" اللى مطير عقل "جوزى"".

رد على صاحب الكشك قائلا "صباح الخير يا جمعه". تناول منه الجريدة واستأنف سيره على الرصيف دون أن يعلق على ما قاله. اجتاز المسافة إلى مبنى "العرايس"، بخطواته السريعة، شاقا طريقه وسط الزحام. صعد درجات المدخل وانحنى إلى اليمين فى الحوش الواسع المبلط ثم اخترق فتحة صغيرة فى المبنى ليجد نفسه عند باب المصعد. كان ينتظر أمامه جمع من الناس تناوبوا فى الضرب بأكفهم على بابه. هبط المصعد فحشر نفسه بينهم ثبتوا عيونهم فى السقف وتنفسوا ببضع كلمات كأنهم يتوقعون أن تحدث كارثة.

خرج من المصعد فى الدور العاشر واجتاز الممر أمام الغرف الخالية من أصحابها إلى أن وصل إلى الغرفة الكبيرة الموجودة عند أقصاها. فوجئ بزائر يجلس على الكنبة الجلدية مستغرقا فى قراءة مجلة. تأمله من الباب، صغير الجسم حول رأسه شعر أكرت منفوش أحس به الزائر واقفاً فى الباب فنحا المجلة جانبا وانتفض واقفا. قال:

«آرجو المعذرة. سألت الفراش عن حجرة الأستاذ "يوسف البحراوى" فقال لى إنها فى نهاية الممر. لم أجد أحداً فيها فجلست أنتظره".

قال:

"أنا "يوسف البحراوى"".

مد الزائر يده إليه فأحس بها بين أصابعه ملساء فيها عرق بارد. سحب يده بسرعة وقال "تفضل اجلس" فعاد إلى جلسته على الكنبة. تردد لحظة قبل أن يدور حول المكتب ليأخذ مكانه وراءه. قال:

"لم أتشرف باسمك".

ارتعش أنفه المقوس.

"آه... آسف. اسمى "سعد الله ابراهيم عويس". ناقد وسكرتير تحرير مجلة "البرارى"".

تذكر أنه رأى هذا الاسم فى الترويسة. لا يقرأ فى المجلة سوى يومياته.

"أرسلنى إليك الدكتور "حلمى طرخان". طلب منى أن أعرض عليك اقتراحا يأمل أن توافق عليه". أخرج منديلا من الورق تمخط فيه ووضعه فى منفضة السجائر.

"اقتراح بماذا؟"

"أن تنضم إلى أسرة تحرير الجريدة اليومية التى تنوى "دار

البراري" إصدارها".

"لماذا لم يخاطبني مباشرة؟"

"الحقيقة الفكرة جاءته وهو يستعد للسفر إلى الخارج، فأرسلني إليك توفيراً للوقت".

أحس بالضيق. لماذا لجأ "حلمي طرخان" إلى وسيط ليعرض عليه اقتراحه؟ وما هي حكاية الجريدة اليومية هذه؟ "دار البراري" ليست كبيرة، ثم لها علاقات "باليسار". على أية حال ليس ذنب الرجل الجالس أمامه أنه اختير لإبلاغه بهذه الرسالة.

سأله:

"هل لديك تفاصيل أخرى عن هذا الموضوع؟"

بدا عليه نوع من الحرج.

"الحقيقة لم يفصح لي الدكتور "حلمي" بأكثر من هذا. لفتت نظره إلى أنه قد يكون من الأفضل أن يفاتحك بنفسه فقال: "أنا مستعجل وأريد أن أكسب وقتاً"".

"إذن عندما يعود الدكتور "حلمي" من السفر يمكن الاتصال بي لنتداول في اقتراحه. وعلى أية حالة أشكرك على الجهد الذي بذلته في الاتصال بي". أخرج علبة سجائر من سترته "السفاري" وقال: "معذرة. تشرب قهوة أم شاي؟ تفضل سيجارة".

"شكراً. توقفت عن التدخين بأمر الطبيب".

تنبه إلى بشرته شابها شئ كالاخضرار البسيط. قال

"خير إن شاء الله".

"لا... مسألة بسيطة. إذا لم يكن لديك ما تريد أن تسألنى عنه أرجو أن تأذن لى بالانصراف".

أوصله حتى المصعد ثم عاد إلى مكتبه. ضغط على الجرس. عندما جاء الفراش طلب فنجانا من القهوة «على الريحة». وضع علبة السجائر على المكتب وإلى جوارها الولاعة. فتح الحقيبة الجلدية التى حملها معه وأخرج منها رزمة من الورق وقلما. أمسك بالقلم وسطر بضع كلمات على الورق ثم شطبها. أشعل سيجارة وأخذ منها أنفاسا متتالية أطفأها بعدها فى المنفضة. أمسك بالقلم من جديد وأخذ يكتب على الورق. ملأ صفحة كاملة قبل أن يتوقف ويلقى بها فى سلة المهملات. جريدة يومية؟ لماذا لم يفاتحه "حلمى طرخان" مباشرة؟ ظل ينشر يومياته عنده منذ أن صدرت "البرارى" ورفض العروض التى جاءته من الخليج. فى المقابل يجب ألا ينسى أنه أنقذ حياته عندما توسط فى إرساله إلى "كارلوفى فارى". عاد من هناك وبعدها بيومين اندلعت المظاهرات فى شوارع المدينة. كتب عنها يوميات بعدها زود أجره إلى الضعفين. أين راحت القصاصة التى اقتطعها من المجلة؟ دس يده فى الحقيبة وبحث بأصابعه إلى أن عثر عليها. أخذ يحملق فى وجه المرأة الجالسة على المنضدة تميل على العود كأنه طفلها تسقط حوله جداول شعرها لتحميه. ترتدى ثوبا طويلا يطل من تحته حذاء من المطاط

الأبيض. هذه المرأة أين رآها من قبل؟ أعاد قراءة الكلمات المطبوعة تحت الصورة. فرقة "السيد درويش" تحيي برنامجا من الموسيقى التركية يوم الخميس ١٢ سبتمبر ابتداء من الساعة التاسعة حتى منتصف الليل.

أخرج المفكرة من الحقيبة وأخذ يقلب فيها إلى أن اهتدى إلى الصفحة التي يريدها. أمسك بالقلم وكتب "فرقة السيد درويش. التاسعة مساءً تليفون ٥٧٨٣٨٦ .

في تلك الليلة وصل إلى مسرح "السيد درويش" في الساعة الثامنة والنصف. كان قد حجز لنفسه مقعدا في الصف الخامس، فابتاع التذكرة وظل يتمشى في الخارج إلى أن اقترب موعد الحفل.

منذ اللحظة الأولى استغرق في موسيقى الصولو الذي كانت تعزفه. كان مقعده في منتصف الصف فوجدها جالسة أمامه متوحدة مع العود. أصابعها تلمس أوتاره فيصعد منه اللحن باكيا أحيانا، غاضبا متأملا في حزن، فرحا مثل طفل يلهو في ماء البحر ومن ورائها العازفون يردون عليها. كان كالطائر فوق الكون تصعد إليه ألحان الرعاة وحوافر خيولهم، والصيادين وأمواج البحر، وصمت البراري وصيحات الحرب، والصوفيين والدراويش، وبائعات الهوى، أو بائعي الفل، أو الذين ضاعوا في ربوع الأرض. عاش معها في تاريخ اللحن.

عندما انتهى الحفل ظل جالسا حيث هو. أفاق عندما وجد القاعة خالية من روادها فخرج مسرعا ليبحث عمن يستطيع أن يدله على

الباب الذى ستخرج منه. أشار رجل ضخم الجثة يرتدي ملابس حارس الأمن إلى باب صغير منزو في ركن من أركان المسرح. تفرس في وجهه بنظرة فيها شك وهو يسأله. فقال: "أنا قريب أحد العازفين جئت للقائه" وانطلق نحو الباب الذى أشار إليه. توقف على مقربة منه ولكن مر ما يقرب من نصف الساعة دون أن تخرج منه فظن أنه تأخر في الصالة فلم يلحق بها. اتجه إلى الشارع. ألقى بنظرة أخيرة يائسة ناحية الباب فلمحها خارجة في صحبة أحد العازفين ومعها العود. انتظر حتى يرى ان كانت ستنصرف معه لكنها سارت إلى جواره خطوات ثم استأذنت منه. كان قد سبقها إلى الشارع فاستدار ليجد نفسه واقفا أمامها تكاد لا تفصل بينهما مسافة. إنحرفت قليلاً لتتفاداه وتواصل طريقها فقال بسرعة.

"أرجو المعذرة يا أستاذة لكنى في حاجة للتحدث إليك".

قطبت جبينها ونظرت إليه في ضيق. قال:

"منذ أيام رأيت صورتك في إحدى المجلات. جاءنى الإحساس بأننا التقينا من قبل في مكان ما. حاولت أن أتذكر لكنى فشلت. تملكنى شعور قوى بأنه يجب أن ألقاك. الصورة كانت إعلاناً عن هذا الحفل فقررت أن أحضره لعلى أجد فرصة للتحدث إليك فأرجو أن تتيحى لى ذلك. لكن ان رفضت لن أنسى هذه الليلة ولا ما قالته لى أوتار العود الذى كنت تعزفين عليه."

أخذت نفسا عميقا وقالت:

"من أنت؟"

استغرق في عينيها أضاءتهما كشافات إحدى السيارات كانت تستدير في الشارع. قال:

الآن تذكرت. أنا الراقد على الدكة ليلة ١٧ يناير سنة ١٩٧٧.

اقتربت منه. مدت يدها إلى ذراعه والتفت أصابعها حولها. أحس بالدفء يسري من أطرافها إليه. قالت:

"كنت أتساءل إذا كنا سنلتقي ثانية. أين أنت ذاهب؟"

سارا جنبا إلى جنب. قال:

"أنا ذاهب معك حيث تريدين".



الفصل الخامس

كان الجو حاراً ففتح التكييف وجلسا فى الصالة. استقر جهاز التسجيل الجديد الذى ابتاعته على المنضدة، فضى اللون يضوى فوق الرخام الأسود. ضحكت وقالت:

"أردت أن تبهرها".

"أبداً. لم يكن هذا فى ذهنى".

"على الأقل تخيلت اللقاء قبل أن تذهب إليه".

رفع كفيه أمامها كأنه يدفع عن نفسه اتهاماً.

"لم أتخيل شيئا. كنت كالمنساق إليه".

"رغم مرور أكثر من سنة على لقائك الأول بها. واضح أنك لم تنسها".

صمت قبل أن يرد.

"عندما تسألينى الآن أقول إنها تركت فى نفسى شيئا لم أتنبه إليه حينذاك، شيئا استيقظ عندما رأيت صورتها وهى تعرف على عودها".

توقف عن الكلام فجأة وسألها:

"هذه الأسئلة هل هى لزوم البحث؟"

قالت:

"إنها لزوم الفهم".

"فهم ماذا؟"

"فهم الشخصية التى أسألها. لكن إذا كنت لا تريد أن أستمر يمكننا أن نتوقف".

"والبحث، أليس مهما بالنسبة إليك؟"

تسرب شئ من المرارة إلى صوتها. قالت:

"البحث لن يغير العالم".

"لا أحد يغير العالم".

سألته كأنها تريد أن تشاكسه:

"هل حاولت أنت أن تغير العالم ؟"

لمحت ظلا يمر على ملامحه. مد يده إلى كوب من الليمون وارتشف منه. خطر فى بالها. أصابع قوية مرهفة الحس لكن فى الفم شئ ينم عن الضعف. أوقفت جهاز التسجيل .

"أنت لا تريد أن أستمر فالأفضل أن أتركك".

قال:

"والبحث ؟"

"لست الكاتب الوحيد على الأرض. يوجد غيرك".

تأملها في هدوء. الأنف الصغير المربع، والرموش الطويلة تطل من بينهما نظرة فيها شئ كالغل.

احتضن الوسادة الزرقاء بين ذراعيه وقال:

"هل تعتقدين أنه من حقك أن تدسي أنفك في حياتي ؟"

فوجئت. قالت في حدة: "لم أدس أنفي في حياتك. سألتك أشياء تتعلق بالبحث وبدا عليك أنك سعيد وأنت ترد على. أحيانا كنت تتهرب مني أو تمتنع عن الرد واحترمت حريتك في هذا. فلماذا توجه إلى مثل هذا الاتهام؟ !".

انكسر صوتها وهي تنطق بالجملة الأخيرة. نظرت اليه كأنها تنتظر رده. ظل يحملق في جمود أمامه، ثم قال:

ألم يخطر على بالك أنك تثيرين أشياء أردت أن أنساها.؟

"تنساها.؟ ولماذا تريد أن تنسى هذه اللحظات؟"

قال:

"يبدو أنك تفتقدين إلى الخيال. فكل لحظة تأتي بعدها لحظات. ولن تتوقف أسئلتك عند حد. ستواصلينها حتى النهاية".

ظلت صامتة. حملقت في حذائها. قالت بصوت خافت:

"آسفة لم أفكر فى هذا."

«طبعا. لا يهمك إلا البحث والدكتوراه. ألم تسألينى منذ أول لقاء لماذا توقفت عن الكتابة؟"

"لكنك وافقت على استئناف ما بدأته معك".

تراجع فى جلسته. مرت بيدها على رأسها فتسمرت نظراته على شعرها. قال:

أنت التى عاودت الاتصال بى، فبدا لى وكأننى أسد الباب أمامك وأنت لا زلت فى أول الطريق. أحسست أننى سخيف".

عادت نظرة التحدى تطل من عينيها.

"اسمح لى أن أقول لك بدورى أنك كاتب روائى تفتقد إلى الخيال. هناك أسباب أخرى دفعتك إلى الموافقة على استقبالى من جديد".

بدا عليه الضيق. قال:

"وما هى يا "أستاذة سحر"؟"

مدت يدها إلى جهاز التسجيل ووضعته فى الحقيبة. ثم قالت:

"سأتركك لتفكر فيها. ربما استطعت أن تصل إليها وحدك".

اصطحبها إلى المصعد وانتظر حتى أضاء السهم فوق بابه. قالت:

"ان كنا سنلتقى بعد ذلك لا تنس أن تُعد لى برتقالا أخضر حتى

أغرس فيه أسناني. لا زلت أحب عطره."

بحثت عن سيارة للأجرة لتعود بها إلى شقتها في "بولاق الدكرور" ثم غيرت رأيها. أحست أنها في حاجة إلى تحريك جسمها، الى المشي فعبرت الشارع. قاربت الساعة على منتصف الليل لكن زحام الناس على كورنيش النيل كان لا يزال شديداً. أثقل حر الصيف الرطب الهواء في مساكنهم كالجحور فلاذوا بالفرار منها. سارت بين الأفواج المتزاحمة وعربات الحمص والشاى والقهوة، وبائعي الفول السوداني واللب، والمتجمعين عند الزوارق الراسية عند شاطئ النهر، ينتظرون فرصتهم للصعود إليها. بين الوجوه الضاحكة، والأضواء الملونة ودقات الطبل وأصوات الأغاني يحملها إليها النسيم أو تصدح من مذياع حمله أحد الصبية. تساءلت: أكل هذا المهرجان لتخفيف الحزن؟ محاولة لإخفاء البؤس الذى يعانون منه؟ أم هو تعبير عن فرح حقيقي؟ في قلبها ثقل لا تعرف مصدره. منظر الرجل القابع في شقته زحفت التجاعيد على ملامحه مازالت تحمل بقايا الوسامة الغاربة؟ أهي كلمات قرأتها في عينيه لم ينطق بها؟ أم هو وجه المرأة الفلاحة الجالسة على الأرض ترفع إليها يدها بلفة مناديل ورقية فعاد إليها وجه أمها ترفع جلبابها عن بطنها ليغرس فيه الطبيب حقنته ويشفط منه سائلاً لونه أصفر. في أنفها رائحة جلود الأحذية كانت تخيطها في أجازات الصيف. ترى وجه صاحب المصنع يوم أن غرست السكين في يده امتدت ليتحسس ما بين ساقيها، وذراع أبيها ترتفع في الهواء

لتضربها لأنها لم تعد بالقروش التي كان ينتظرها.

فجأة انطلقت أمامها طفلة كانت تعدو خلف كرة أفلتت منها. مدت إليها يدها لتحول دون اصطدامها بها ثم مالت لتعيد الكرة إليها. لمحت الضفيرة ترقد فوق ظهرها، والابتسامة تضيئ وجهها الصغير، فرأت نفسها خارجة من باب الدار فى الفجر لتجتاز مسافة الكيلومترات الخمس إلى المدرسة. لحظة سعادة في حياتها تخترق فيها حصار الجدران. الشمس تعلو فى السماء من خلف السحب فتلمع أوراق الشجر في ضوئها، "وأبو قردان" ناصع البياض فى الغيطان الخضراء تمتد حتى الأفق يخطو فوق ساقيه الطويلتين الرفيعتين ليغرس منقاره وسط الزرع ثم يرفع رأسه وينظر إليها. سارت مشواراً طويلاً منذ تلك الأيام لتصبح الآن وسط هذه الجموع في القاهرة. كانت أمها إلى جوارها دائماً. ترى صورتها ليلة عرسها. جمعت القرش فوق القرش من خلف ظهر زوجها لترسلها إلى كلية الآداب ولتدفع مصاريفها فى بيت الطالبات. خشنت ملامحها ويداها من أجل أن تسير مرفوعة الرأس رغم العيون التى تنهش في جسدها منذ أن ولدت طفلة فقيرة لأب نجار من "كفر السنط" ولأم فلاحة من "شبرانتنا".



الفصل السادس

تزوجا في بداية الخريف. كانا يتنزهان على شاطئ النيل في الجيزة. أخرجت منديلا ملونا من حقيبتها المصنوعة من الخوص تحمل فيها ورقا، وقلما وكيسا اهترأ جلده تضع فيه نقودها. فرشت المنديل على الحاجز الحجرى المنخفض. وقالت:

"لنجلس هنا".

قال:

"والشال... سيتسخ... ثم إنه لن يتسع لنا نحن الإثنين".

"أستطيع أن أغسله، "والجوبة" التي أرتديها قديمة. أما أنت فحريص على بنطالك المكوى".

قال محتجا:

"اقترحت عليك أن نجلس في كازينو "فرساى". إنه مكان جميل ونستطيع أن نتناول فيه زجاجة من البيرة وبعض المزات".

نظرت إلى رجل عجوز جلس القرفصاء على مسافة منهما وأمسك بمروحة من سعف النخيل أخذ يحركها فوق كيزان من الذرة أرقد تحتها القوالح الجافة فتطايرت منها شرارات حمراء في الريح.

"لا أحب الجلوس فى هذه الكازينوهات. كل شئ فيها ردئ، وغالى الثمن. أفضل أن آكل كوزاً من الذرة المشوية ونحن جالسين هنا."

أشارت إلى الرجل. "اذهب إليه وانتقى لنا كوزين طريين واجعله يشويهما أمامك".

"لا أحب الذرة المشوية".

"طبعا أمك كانت إنجليزية. اشتر كوزاً واحداً ".

"لم تكن إنجليزية. كانت أيرلندية".

"وما الذى عودتك عليه".

"البطاطس، أنا مولع بالبطاطس".

رنت ضحكتها عاليا. توقفت فجأة وسألت:

"كانت جميلة؟"

"جداً... عيناها كانتا كلون البحر فى "مرسى مطروح".

"أين هى؟"

"عادت إلى أيرلندا عندما تزوج أبى عليها". قال بسرعة. "وأمك هل كانت جميلة؟".

"طبعا. لكن عينيها كانتا عسليتين." صمتت لحظة ثم أضافت. "ماتت صغيرة".

"مما ؟"

قالت:

"سرطان في الثدى. اذهب واحضر لي كوز الذرة".

انتظر حتى انتهى الرجل من شوى الكوز وعاد به ملفوفا فى ورقة خضراء. عندما اقترب منها أشرق وجهها. تناولته منه .

«أشكرك يا «يوسف». كوز الذرة هذا عندى أحسن من الأشياء التى يضعونها لك في طبق من الصيني ويحيطونها بقطع من الطماطم والخيار المشرشرة ثم يسكبون عليها معجونا أصفر من زجاجة ويقدمونها لك باسم أجنبى ليخفوا أنها ليست سوى ماكولات بائتة."

قال ضاحكاً:

«إنك تبالغين "يا سحر". وكل هؤلاء الناس الذين يجلسون ويأكلون طعامها ؟"

«انهم مثلك تستهويهم المظاهر". تغرس أسنانها فى كوز الذرة وتقول: "الكوز ده حلو بصحيح. اجلس لماذا تبقى واقفا؟ هل مازلت تخشى على ثنية بنطالك ؟"

فى اليوم السابق كان قد حضر الحفل الشهرى الذى تعزف فيه وانصرفا سوياً. حملت حقيبة العود في يد ولفت أصابع يدها الأخرى حول ذراعه. سارا بخطوات بطيئة. عندما وصلا إلى شارع الهرم هم باستدعاء سيارة للأجرة لتحملها إلى أقرب محطة قطار يتجه إلى "حلوان". تردد لحظة ثم سألها:

"لماذا لا تبيتين الليلة معي في شارع "نويار" "يا سحر"؟"

لمح في عينيها الشعاع البنفسجي .

قالت:

"أحب أن أبقى معك، لكن عندي اقتراحا".

"وما هو؟".

"أن نحتفل. لم نحتفل أبداً بلقائنا".

"كيف؟"

"نبتاع زجاجة نبيذ وبعض الحلويات قبل أن نذهب إلى شقتك".

نظر إليها بشيء من الدهشة. قالت:

"هل لديك مانع؟. ألا تشرب النبيذ؟"

«أشربه"، ثم كأنه يتدارك " لكن أين سنعثر على زجاجة نبيذ في هذه الساعة المتأخرة خصوصاً هذه الأيام. الساعة قاربت على الحادية عشرة والربع".

"هناك محل في سوق التوفيقية يغلق عند منتصف الليل. إذ أسرعنا يمكننا أن نلحق به".

عادت نظرة الدهشة إلى عينيه فانفجرت ضاحكة.

"أتشك في؟"

أحس بالخجل .

"لا... طبعا. لكن من أين جاءتك هذه المعلومات"؟.

قالت:

"أثناء الدراسة فى كلية الآداب كنت أعمل عدداً من الساعات فى محل يبيع الألبان إلى جواره. كان صاحبها يعرف أبى. لكن يجب أن نسرع".

أشارت إلى سيارة للأجرة مرت أمامهما. عندما توقفت انطلقت نحوه وفتحت بابها الخلفى وقبل أن يسألها السائق وضعت العود على المقعد ثم التفتت اليه وقالت:

"أريد أن أركب إلى جوار السائق لأمد ساقى".

وجد نفسه جالسا وحده إلى جوار العود. تملكه إحساس بالتوتر لكنه انشغل فى شعرها الطويل تلمع فيه أضواء الشارع. عندما وصلت السيارة إلى سوق التوفيقية قالت للسائق:

"عندك مانع ياسطى تنتظرنا لحد ما نشترى حاجة وبعدين تاخدنا شارع "نوبار"؟"

قال:

"والله ياريت ياستى عشان خاطرك. لكن الحتة دى زحمة خالص والانتظار فيها صعب، ومش عايز آخد مخالفة. دا القرشين يادوب بيكفونى أنا والعيال".

قالت:

"طيب معلهش. عايز كام ؟"

"عشرة جنيه بس".

نظرت إليه فى استهجان

"عشرة جنيه؟!"

تدخل من الخلف ..

"معلهش يا "سحر". مش احنا بنحتفل النهاردة؟"

أدار السائق رأسه إليه .

"اتفقتوا على الجواز واللا إيه؟ إذا كان كده خلو المشوار ده علىّ."

أخرج المحفظة وسحب منها ورقة بعشرة جنيهات. تسمرت عيناه عليها وهو يمدها إليه. هبطا من السيارة ووقفا على الرصيف. قالت:

"لابد أنك لم تعان للحصول على النقود".

«أنا سعيد الليلة لأنك معى وأريد أن أسعد الناس".

ضغطت على ذراعه.

لك حق يا "يوسف". أنت إنسان ظريف". صمتت لحظة طويلة ث أضافت "وأنا باحبك".

• توقف عن السير فجأة واستدار ليواجهها. ظلا واقفين والناس يمرون من حولهما كالماء حول جزيرة صغيرة فى النيل. أخذ نفسا عميقا.

"وأنا بحبك يا "سحر" " ثم صمت. قالت ببطء وعيناها في عينيه:

"أدخل المحل على الناصية يا "يوسف" وقل لصاحبه أنني أرسلتك إليه. أطلب منه زجاجة "عمر الخيام". عنده زجاجات يأخذها من الفنادق السياحية الكبرى. لن يطلب منك شيئا. ولا تنس أن تقول له أنني سأرسل له دعوات لحفلة «السيد درويش» القادمة". ثم كأنها تفيق التفتت حولها وأضافت. "محل "قويدر" قريب نستطيع أن نبتاع منه ما نريده".

في تلك الليلة تبادلا العناق إلي أن أذنت الميكروفونات لصلاة الفجر ثم رقدا متجاورين يتأملان بعضهما من عيون ثقلت جفونها. نامت فسحب ذراعه من تحت رأسها وغطاها. زحف نور النهار وتسلل خلال الستائر. خطر في باله تساؤل: "ترى من هو الرجل الذى نامت من قبل في أحضانه؟" لكن بعد قليل نحاه جانباً ونام.

تأمل الخصلة الفضية تلمع فى شعرها وهى جالسة إلى جواره على الحاجز تغرس أسنانها فى كوز الذرة. سألها:

"تتجوزينى يا "سحر"؟"

لمح النبض ينتفض في عنقها الطويل. أدارت رأسها ناحيته ونظرت إليه. قالت:

"متى يا "يوسف"؟"

قال:

"باكر".

وضعت كوز الذرة في حجرها. مدت يدها وأمسكت بيده. قالت: "لماذا باكر؟ الآن". ثم رفعت ذراعها وألقت بكوز الذرة بعيداً في مياه النيل.



الفصل السابع

انتقلت من " حلوان " لتقيم معه في شقته بشارع "نوبار" . كانت شقته مكونة من غرفة نوم ، وحمام، ومطبخ ، وغرفة مكتب ، وصالة يستقبل فيها زواره . أما طعامه فكان يتناول أغلبه في الخارج ، ماعدا الإفطار يعده في المطبخ ويأكله جالساً على المنضدة الرخامية التي نقلها من الصالة.

كانت تكفي احتياجاته ، لكن عندما أصبحت تشاركه حياته ضاقت بهما مساحتها. احتاجت إلى غرفة خاصة بها تكتب فيها ما تبقى من أجزاء الرسالة ، أو تعزف فيها على العود ، أو تسجل فيها بعض الألحان على الأجهزة التي اشترتها خصيصاً لذلك .

قال لها :

" يمكن أن نبيع شقتي وننتقل إلى شقة بالإيجار. "

ألقت إليه بنظرة فاحصة .

" لا أشعر أنك سترتاح إلى هذا الحل. "

قال بلهجة فيها تأكيد:

«أبداً لماذا تقولين هذا ؟ ليس عندي مشكلة في بيع الشقة" وسرحت عيناه إلى صورة مثبتة على الجدار. عاد إليه وجه أمه هربت منه الدماء

وتحولت الزرقة في عينيها إلى عكارة يوم أن اكتشفت أن أباه تزوج زميلتها في معهد الآثار. قالت له "لست جارية حتى أقبل منك هذا" . قبل أن تسافر عائدة إلى بلادها تنازلت له عن الشقة انتقلت ملكيتها إليها بعد الطلاق. وقعت على الأوراق ثم صحبها إلى المطار. رأى يدها المرفوعة إلى شفتيها تُرسل إليه قبلة في الهواء ثم غابت خلف الحاجز ولم يرها بعد ذلك إلا يوم أن ماتت .

ظلت تفحصه بنظرة ثابتة.

" صورة أمك أليس كذلك ؟ "

قال :

" نعم ".

«كانت جميلة فعلا ؟ " صمتت لحظة قبل أن تضيف "سأبيع أنا شقة "حلوان". إنها صغيرة ، وبعيدة والمسافة إليها تستغرق أكثر من ساعة"

يوم أن نقلت أشياءها إلى شارع " نوبار " اقترح عليها أن تضعها في غرفة المكتب وأن ينتقل هو إلى الصالة . دارت بعينيها حولها ثم قالت : "سأعمل أنا في الصالة " . استولى عليه شعور بالارتياح.

«بدليّ فيها كما تشائين . سأساعدك في إخلاء بعض الأشياء منها . يوجد سلم صغير في الشرفة يمكن زيادة أو خفض ارتفاعه.

واندفع إلى الشرفة ليحضره . صعدت على السلم وأخذت تناوله المجلدات التي وضعها على الرفوف قالت :

" لا تقلق يا "يوسف" ، لن تحتاج المسألة سوى إلى تعديلات بسيطة".

ثم أخذت تردد أغنية وقع على كلماتها صدفة فيما بعد في ملف برتقالي اللون كتبت عليه " لم يعد لعودي رنين " .

مر الصيف ، وبدأ الخريف لكن الحرارة أبت أن تزول فتعودا أن يسهرا الليل تصل إليهما طراوته مخترقة المسافة التي تفصل شقتهما عن النيل، وأن يعوضا ساعات السهر بالنوم حتى الظهر. لكن في ذلك اليوم دق جرس التليفون مبكراً في الصباح ، وهما لا يزالان يغطان في النوم .

أيقظها الرنين فأزاحت ذراعه الملفوفة حولها برفق:

«يا يوسف ، يا يوسف تليفون. "

اخترق صوتها الغيوم ، فقام وتحسس طريقه حتى وصل إلى التليفون . رفع السماعة إلى أذنه . سمع صوتاً يقول :

" أسف للإزعاج في هذا الوقت المبكر ، أريد التحدث إلى الأستاذ "يوسف البحراوي". أنا "سعد الله ابراهيم عويس" مدير مكتب الدكتور "حلمي طرخان"."

قال : "أنا يوسف البحراوي" .

" لحظة من فضلك " جاءته موسيقى للبيان ، تكررت عدة مرات فأحس بالضيق. حاول أن يشغل نفسه بالتعرف على مؤلفها. خطر له أن الموسيقى جزء من دراسة "لشوبان".. مرت ثلاثة شهور أو أكثر منذ أن زاره صاحب الشعر المنكوش " سعد الله إبراهيم عتريس" .. لا

..."عويس" أصبح مدير مكتبه.

انقطعت الموسيقى وانتزعه صوت رفيع يقول " أهلاً .. "يايوسف" . أخيراً.. أين كنت طوال هذه المدة ؟ سمعت أنك تزوجت . لم أستطع أن أهنئك في حينه. كنت في "ليبزيج". كما تعلم ، حصلت على الدكتوراه من هناك .... أيام الاشتراكية " . ضحك قبل أن يستطرد . " مع ذلك لم ينسوني . لكن الأهم حدثت تطورات كثيرة منذ أن التقينا آخر مرة . أصدرنا جريدة يومية أنا رئيس تحريرها."

«جريدة يومية ؟ "

« نعم ، بالإضافة إلى المجلة. اسمها " آفاق مصرية " ألم تسمع عنها ؟ "

« الحقيقة لا.. "

" المهم . أريد أن تمر علي باكر. "

" باكر ؟ "

« نعم . الساعة التاسعة . أحب أن أبدأ يومي مبكراً . أستيقظ كل يوم في السادسة لآخذ حمام "ساونا" ، وأتصفح الجرائد " .

" ساونا ؟ "

«عندي "ساونا" في البيت . هل عندك شيء في التاسعة ؟"

فكر ثم قال :

" لا .. أين نلتقي ؟ في «البراري» ؟ "

« لا .. عندنا مقر جديد في ١٥ شارع نادي الصيد . مكتبي في

الدور الثامن لكن العمارة كلها تبعنا ."

أعاد السماعة إلى مكانها . خرجت من الحمام وسألته :

" من الذي اتصل ؟ "

"حلمي طرخان ".

قالت وفي صوتها نبرة لم يتعود على سماعها.

" حلمي طرخان؟! "

" هل تعرفينه ؟ "

صمتت لحظة.

« التقيت به منذ سنين في حركة الطلبة ، كان من قياداتها ، وكنت أنا في السنة النهائية لكلية الآداب . ما الذي يريده منك؟ "

"أصبح رئيس تحرير جريدة يومية، وطلب مني أن أمر عليه. لم يفصح عما يريده مني ".

" يبدو عليك السرور. "

«ربما تتفتح أمامي أبواب تغير حياتنا. "

قالت :

«ما لها حياتنا ؟ على أي حال سنرى ما الذي سيعرضه عليك ".

وقفت أمام المرآة . رفعت المشط قرب رأسها ثم أنزلته ، لمح عينيها تطل منهما شظايا صغيرة لامعة . قال :

"نشرت عنده يوميـاتي طوال السنين الماضيـة ، ولا تنسى أنه هو

الذي ساعدني في الذهاب إلى "كارلوفي فاري" "

قالت بحدة :

" أين سيجد من يكتب ما تكتبه أنت؟".

وضغطت بأصابع يدها على أسفل ضلوعها وهى سارحة .

كان العشاء هو الوجبة المفضلة بالنسبة إليهما . يستمتعان أثناءها بالحديث الذى يدور بينهما. تضع الشموع على المنضدة التي ابتاعتها لتكتب عليها . ترفع عنه أوراقها وتغطيه بمفرش أبيض وفي منتصفه تضع زهرية من الزجاج تطل منها وردة حمراء . يذهب هو إلى المطبخ ليعد الطعام . يجتهد في اختيار البهارات ، وأنواع السلطات ، وفي مزج الألوان وتزيينها . يسعد بالانبهار الذي تعبر عنه بصوتها الرنان وهي تقول "كان يمكن أن تكون فنانا تشكيليا" . يجلسان على المائدة في ضوء الشموع يرقص لهبها فوق الملامح .

فى تلك الليلة ذهبت إلى سوق التوفيقية وعادت تحمل صينية من الحلويات وزجاجة من النبيذ الأحمر . انتهى من كتابة روايته الثالثة استغرقت كتابتها ما يقرب من تسعة أشهر ، وسلمت هي رسالتها عن " نساء يقتلن الرجال " إلى المشرف . قالت "لابد أن نحتفل الليلة بما أنجزه كل منا ، وبما ستكتبه في جريدة "آفاق مصرية"." قال مبتسماً :

" إنها مجرد مكالمة تليفونية لا نعرف ما الذي ستؤدي إليه وتتكلمين عما سأكتبه فيها منذ الآن " ؟ ! قالت " لا ، سيطلبون منك أن تكتب . أنا واثقة من ذلك . لن يجدوا من هو أفضل منك وغداً ستتذكر ما قلته لك الليلة " .

قال ضاحكاً :

«لا فـاصل عندك بين الواقع والخـيـال . ولكن قـولي لي لماذا وقع اختيارك على موضوع غريب مثل النساء اللائي يقتلن الرجال لرسالة الدكتوراه ؟"

حملقت في وجهه.

" لأنه في يوم من الأيام كدت أن أرفع سكيناً لأقتل به أحد الرجال "

فوجئ بردها . لمح وجهها أصبحت ملامحه كالحجر المصقول . ثم كأنه لم يصدق ما قالته ابتسم في سخرية.

" متى حدث هذا ؟ "

"هذه قصة أخرى ليس هذا وقتها . لكن لماذا تبتسم . يبدو أنك مثل كل الرجال ، يفعلون ما يفعلونه بالنساء ثم يبتسمون كأن لم يحدث شيء ".

" وهل أسأت أنا إليك ؟ ! "

" يكفي أنك تتصرف معي أحياناً بلا حساسية . كأنني لا أهمك ".

« أتحداك أن تعطيني مثلاً واحداً ".

قالت :

" ألم تلاحظ أنه منذ انتقالي إلى هذه الشقة قل إنتاجي بشكل ملحوظ ؟ "

" وكيف إذن انتهيت من الرسالة وأنت في هذه الشقة ؟"

« أتحدث عن إنتاجي الفني ، عن الشعر والأغاني . كيف أكتب شعراً ، أو أغان وأنا جالسة في الصالة تغزوها أصوات الطالع والنازل ، وأجراس الباب ، ورنين التليفون؟ ".

" اقترحت عليك أن تأخذي مكتبي ، وأن أعمل أنا في الصالة ".

" وهل تعتقد أن هذا كان يمكن أن يكون حلاً ؟ كنت ستتهمني بأنني أنا السبب كلما تعثرت في الكتابة . فلابد للرجل أن يبحث عن كبش فداء . والزوجة هي الكبش الأمثل. لكن أنا التي أخطأت . كان يجب ألا أبيع شقتي في "حلوان" ، أن أحتفظ بها حتى أستطيع اللجوء إليها عندما أريد " .

علا صوته .

" كلام فارغ . تلقين الاتهامات إلي جزافاً " .

قالت بهدوء :

" لا ترفع صوتك وإلا جمعت حاجاتي وبحثت عن مكان آخر أعيش فيه . ثم أنا قلت أن الخطأ كان خطئي أنا " .

قال فجأة :

يا "سحر" .. ألم تقترحي أن نحتفل الليلة بما أنجزناه . بدلاً من ذلك أصبحنا نتشاجر . إذا التحقت بجريدة " أفاق مصرية " ، سأبحث عن شقة بالإيجار أوسع من هذه نستطيع أن ننتقل إليها . بعد ذلك يمكننا أن نؤجر هذه الشقة لغيرنا فيزيد دخلنا بشكل ملموس."

هزت كتفيها.

" أنا متوترة اليوم منذ الصباح " .

" لماذا " ؟

" لا تسألني . اتركني لحالي " .

اقترب منها وأحاطها بذراعيه . وضعت رأسها على صدره ثم أبعدته عنها وقالت:

" ربما كان كلامي قاسياً لكن لن أعتذر عنه ، فهو الحقيقة . افتح زجاجة النبيذ واملأ كأسي ". ثم بشيء من اليأس قالت: " أريد أن أسكر. "

في الصباح دق جرس الباب . كانا راقدين عرايا على الكنبة وزجاجة النبيذ الفارغة إلى جوارهما على المنضدة . هتفت " يا "يوسف" . "أم صلاح"."

قال

" من ؟ "

" أم صلاح. "

نظر إلى ساعته : " الساعة الثامنة والربع وميعادي مع "حلمي طرخان" في التاسعة ".

قاما بسرعة وارتديا ملابسهما المتناثرة على الأرض . دق الجرس مرة ثانية . قالت :

" لا تنس زجاجة النبيذ والكأسين . ضعهما في المطبخ بسرعة. سأفتح أنا الباب"

حملقت " أم صلاح " في وجهها وهي تدخل بنظرة فيها شك .

قالت:

«إيه دا يا حبيبتي ؟ انتو كنتو غطسانين في النوم ؟" ودارت بعينيها حول الصالة . " فاتورة النور أهه . لقيتها واقعة على الدواسة . متنسوش تدفعوها وإلا يقطعوا علينا النور " .



الفصل الثامن

قالت :

«هل أنت متعب ؟ "

قال :

«لا . أبداً " . تأملها وهي تمضغ في قطعة من الفطير المثلث . سرحت عيناه بعيداً عنها إلى الجالسين في الضوء الخافت ، ثم عادت إليها . همس :

" كانت تحب الفطير المثلث " .

انتبهت إليه وقالت :

" لم أسمع ما الذي قلته ."

قال :

"آسف . سرحت ، لابد أنك تعودت على غرائب الكتاب " .

قالت :

" لكن أنت توقفت عنها " . صمت ، فأضافت " يبدو أنك متعب فعلاً . يمكننا أن ننصرف ، وأن نعود إلى البيت " .

ارتشف من كأس النبيذ الموضوع أمامه وقال :

«لا على العكس أريد أن أبقى ". نظر حوله وتنفس بعمق " خيراً

فعلت بإخراجي من الشقة . أقضي أغلب وقتي فيها . تعودت على العزلة ، لكنها أحياناً تكاد تخنقني . عندما كنت أكتب كانت الكتابة تملأ وقتي ، وكانت تريحني كأنني أتخلص من عبء أحمله في نفسي . أحياناً أشعر أنك عوضتني عنها ".

ابتسمت في سعادة فأشرق وجهه كأن سعادتها انتقلت اليه . خطر في بالها أول مرة يضيع الحزن من عينيه .

«كيف ؟ "

« لأن أسئلتك أعادتني إلى الحكى ، وفي الحكى معك أجد متعة لم أعرفها منذ سنين ".

أحست بالنبض في عنقها .

" لكنك حتى الآن لم تقل لي ما أبحث عن معرفته ."

تجهم وجهه .

" لست حقل تجارب تختبرين فيه ما تريدين إثباته ولا سلم تصعدين عليه . ربما تكتشفين مثلي أنه في نهاية الأمر ليس هذا هو الذي يعطي للحياة معنى ".

زحفت إلى صوتها نبرة من الأسى .

" لم تعد مجرد موضوع للبحث ". وصعد الدم إلى وجهها .

قال كأنه يغير الموضوع.

" هل تعزفين على العود ؟"

أصابتها دهشة .

" لا .. لماذا تسألني ؟ "

«سؤال خطر على بالي . هل تعزفين على آلة أخرى ؟ "

« لا ... عزفت لبعض الوقت على القيثارة ثم انشغلت في الدراسة والبحث فتخليت عنها " .

" لماذا القيثارة ؟ "

" فيها حيوية أكثر من العود " .

" لكل منهما لغته ، وعلى أي حال بينهما قرابة . صمت ثم سأل " لكن هل يمكن أن نغير الأدوار في هذه الليلة . أن أصبح أنا الباحث وأنت الموضوع الذي أجري البحث عليه ؟ "

قالت ضاحكة :

" أهذه وسيلة أخرى للتهرب مني ؟"

« لا ... أبداً ... إنها وسيلة للتقرب منك . فمنذ أن بدأنا نلتقي لم أسألك من هي "سحر بدوي" الباحثة التي جاءت إلي ، وأصبحت الإنسان الوحيد الذي يسأل عني " .

" لا يوجد شيء مهم يمكن أن تسأل عنه. "

لم يعلق .. ارتشف من كأس النبيذ وهو يتأمل شعرها الأسود المقصوص ، والخصلة الفضية تلمع في الضوء الخافت للشمعة .

" يبدو أنك مثلي تريدين تفادي الأسئلة . سأعفيك منها . فمنذ أن جئت اليَّ شعرت أنك لست غريبة ، أننا التقينا من قبل ، أنني أستطيع أن أعرف عنك أشياء دون أن تفصحي لي عنها " .

ابتسمت .

" سأختبرك ... حاول أن تخمن " .

أخذ نفساً من سيجارته .

« أنت مولودة في قرية وعشت فيها ربما إلى أن جئت إلى القاهرة ودخلت الجامعة" .

" صحيح . كيف عرفت ؟ "

" من مشيتك . حملت أشياء على رأسك وسرت بها . من حركة دلع ريفية في الرأس والعنق . من حركة يديك خصوصاً عندما تمسكين بقطعة من الخبز أو الفطير وترفعينها إلى شفتيك ثم تمضغينها ببطء " .

أضاء السرور في وجهها . قالت ضاحكة :

" لعبة لذيذة . أكمل تحليلاتك " .

«عنيدة ، مشاكسة .... جئت مشواراً طويلاً من القرية إلى القاهرة ... واجهت المدينة وحدك ، وواجهت رجالها .. "

سألت :

" كيف عرفت هذا ؟ "

« الأنف ... وكونك تعيشين وحدك . وإصرارك على عمل بحث مع فئة من الرجال والنساء مهنتهم الكتابة ، وهي فئة أقل ما يقال عنها أنها معقدة " .

أضافت :

" ومغرورة " .

" كيف تحملتينهم إذن ؟ "

« اجتذبني إبداع وصدق بعضهم " .

" تريدين أن تصبحي كاتبة أليس كذلك ؟"

" كيف عرفت ؟ "

" ليست صدفة أن تختاري القيام ببحث عن الكتاب الروائيين . أنت في أعماقك تريدين أن تصبحي مثلهم " .

ضحكت في سرور :

" لا ... سجلت عليك خطأ ... أريد أن أكتب للمسرح " .

" ولماذا المسرح ؟ "

" لأن ما رأيته يبعث على السخرية . دافعت عن كياني بتغذية روح السخرية "

" وهل نجحت ؟ "

" ليس دائماً ".

ولمح في عينيها لمعة الألم .

قال :

" هل كان متزوجاً ؟ "

قالت وهي تنظر بعيداً عنه .

" نعم كان متزوجاً " .

★★★★

عادا من مصر الجديدة في سيارة للأجرة . يطل على المدينة من النافذة كأنه يراها لأول مرة . الأضواء والبهرجة ، والبيوت ، والعمارات الفاخرة في أحياء نزحت إليها أموال المضاربة ، وأصحابها

، ومنشآت عسكرية بالمرمر والرخام ، وأسوار عالية ، ونافورات ملونة تطلق رذاذها . خطر في باله . كل هذا لمحاربة من؟ للدفاع عن من ؟

أوصلها حتى شقتها في " بولاق الدكرور ". ضغطت على يده وقالت «متشكرة»، فأحس كأن لهذه الكلمة رنيناً لم يسمعه منذ زمن .



الفصل التاسع

وقف في مدخل العمارة يتطلع إلى العواميد الرخامية ارتفعت فوقها أقواس السقف العالي . دار بعينيه حول الجدران المبطنة بحجر الجرانيت الوردي، ويقطع من النحاس تلمع في ضوء الشمس ، حول النباتات ذات الخضرة الداكنة ، والنافورة تلقي عليها برذاذها .

توجه إلى مكتب الاستقبال . خلف حاجز من الزجاج السميك جلس ثلاثة من الرجال يرتدون سترات زرقاء وقبعات لها اللون نفسه مثبتة بشريط أبيض يتدلى من الخلف. انهمك اثنان منهم في الرد على التليفونات الموضوعة أمامهما بينما تفرغ الثالث لتتبع حركة الشارع فتوجه إليه.

" صباح الخير . أنا اسمي " يوسف البحراوي " . عندي موعد في الساعة التاسعة مع الدكتور " حلمي طرخان " ".

حملق فيه ببرود قبل أن يميل على شيء اختفى خلف الحاجز ويقول " الأستاذ "يوسف البحراوي" تحت . أطلعه؟ ". ثم توجه إليه وقال "بطاقتك . تفضل الدور الثامن ، والمصاعد على اليمين " .

عند الدور الثامن كان ينتظره رجل يرتدي ذات الزي . قاده إلى حجرة مكتب لم يكن فيها أحد . قال : " السكرتيرة حتحضر حالاً . دخلت لرئيس التحرير لكنها مش حتغيب".

مرت أكثر من ربع ساعة قبل أن تأتي السكرتيرة . سمع دبيب كعبيها قبل أن تظهر أمامه . سار معها في ممر قصير ثم أدخلته من باب فتحته بكارت ثم انسحبت عائدة إلى مكتبها .

لم يكن " حلمي طرخان " خلف مكتبه فدار بعينيه حول الحجرة . وجده جالساً على مقعد من الجلد، وإلى جواره على الكنبة امرأة . قام وسلم عليه ثم أشار إليها بحركة من اليد قائلاً " الدكتورة نرمين الصباغ " ، الأستاذ " يوسف البحراوي " ، فوجد نفسه ينظر في عينين خضراوين تشتعلان في بشرتها البيضاء .

مد يده وشد على يدها الممدودة إليه . تردد لحظة ثم قال بشيء من التوتر.

" يبدو أنني اقتحمت عليكما الجلسة ، أن المواعيد تداخلت . ربما من الأفضل تأجيل أحد الميعادين إلى وقت آخر" . أحس بالمرأة تسلط نظراتها عليه .

قال " حلمي طرخان ":

" على العكس قصدت أن نلتقي سوياً لأسباب ستدركها . أردت أن تتعرف عليك "الدكتورة نرمين" وأن تتعرف أنت عليها ".

ألقى بنظرة فيها تساؤل على المرأة جلست على الكنبة واضعة ساقها الطويلة فوق ساقها الثانية كأنها تعودت هذه الجلسة ، فابتسم " حلمي طرخان " واستطرد .

"الدكتورة نرمين الصباغ" صديقة لي ، وربما الأهم من ذلك بالنسبة إليك أنها تعمل مستشارة في الجريدة نلجأ إليها في كثير من الأمور

المهمة . فإن لم يكن لديك مانع أحب أن تحضر معنا هذا اللقاء " .

قال :

" طبعا ليس عندى مانع " . وجلس في المقعد الخالي دون أن ينتظر إشارة منه فعاد " حلمي طرخان " إلى مكانه ثم قال :

«أخذتنا على غرة فلم أرحب بك كما يجب . أنا في الواقع سعيد بهذه الفرصة لرؤياك بعد هذا الانقطاع الطويل ، وهي فرصة ستتيح لنا أن نتداول فيما يهمنا ."

دق جرس التليفون الموضوع أمامه على المنضدة فانشغل بالحديث . تأمله قصير القامة ، زادت السمرة في وجهه كأنه يتعرض للشمس ، وشاب شعره حول الأذنين . يلقي إليه بنظرات سريعة كأنه يحاول أن يستشف تأثير ما يقوله فى التليفون عليه. لم يتغير كثيراً . ربما أشياء لا يدركها إلا من عرفه عن قرب كأنه فقد براءة الشباب ، وحماسه ، واستقر في دور الرجل المهم . ربما يفسر هذا لهجته الرسمية ، أو هو وجود هذه المرأة . يشعر في نظرة عينيه بتلك المسافة التي يصنعها برود الأحاسيس .

" يافندم النقد الذي ينشر في الجريدة موضوعي ومحسوب فهو لا يمس النظام في جوهره . إنه يهدف فقط إلى جعله أكثر قدرة على التكيف مع الظروف العالمية الجديدة ، وإلى فتح الباب أمام عناصر شابه لها نظرة عصرية للأمور." انفجرت منه ضحكة فيها رنة طفولية أعادته إلى أيام قضياها سوياً في معسكرات الشباب فأحس بنوع من التعاطف إزاءه . أنهي حديثه قائلاً:

- لا يا باشا مستحيل . حاضر سنبحث الموضوع لنجد له توليفة ترضيك - .

أعاد سماعة التليفون إلى مكانها . سألت المرأة الجالسة على الكنبة:

- أما زال يحاول؟ -

ابتسم ابتسامة صغيرة ثم التفت إليه:

يا «يوسف» نحن في حاجة إليك، إلى قلمك الجميل».

- أشكرك على قولك هذا . لكن يا "حلمي" ، ما الذي أستطيع أن أكتبه في جريدتكم اليومية . طبعاً لا يوميات ولا رواية طويلة . لم تعد الصحف تنشر يوميات ، أو روايات مسلسلة كما كانت تفعل في الماضي. أصبحت مبنية على المعلومة ، أو الخبر ، أو التحليل السريع - .

قال :

«يا صديقي ، ولماذا تصر على ما تكتبه دائماً؟ هذا جمود ، رفض للتطور . الناس لم يعودوا يقرأون الروايات . السياسة أصبحت كل شيء . ثم لماذا هذا الفصل التعسفي بين الأدب والسياسة . الأديب يعبر عن سياسته فيما يكتبه - .

« أنا لا أفصل ، لكن كل منهما يختلف عن الآخر في موضوعه ، في طريقة تناوله، وفي أسلوب اللغة والتعبير - .

- ألا يمكنك المزج بين الاثنين ليكون ما تكتبه أكثر تأثيراً ؟ البلاد

تمر بمرحلة خطيــرة ، وأنت تريد أن تقف على الشـــاطئ ،.ألا تلقي بنفسك في الخضم . لم أكن أتصور فيك هذا . نحن في حاجة إلى إرساء مفاهيم الحرية والديمقراطية الحقيقية وهذا هو الدور الأساسي لجريدتنا . ألست معي في ذلك "يانرمين" ؟"

قالت :

" أنا معك تماماً " . ثم وجهت كلامها إليه " يا "أستاذ يوسف" . أنا من المعجبات جداً بكتاباتك " . أحس بعينيها تستغرقان في عينيه . " وجودك معنا سيكون مكسباً لك وللجريدة . لدى اقتراح ربما توافقني عليه . أن نبدأ معك بمرحلة تجريبية مدتها ستة شهور أو سنة كما تريد . ستكون مساهمتك فيها ذات شقين مقال أسبوعي في الجريدة اليومية ، ويوميات شهرية في مجلة " البراري"."

التفت إليها " حلمي طرخان " .

«نرمين" والله أنت جوهرة . زمردة مثل عينيك . ما رأيك يا " يوسف" ؟ لست مجبراً على الوصول إلى قرار الآن ,ويمكنك أن تكمل هذه المناقشة مع " نرمين ».

«ألقى نظرة خاطفة على معصمه "عندي موعد هام بعد دقائق . خذيه إلى مكتبك يا "نرمين" ، وأخبريني فيما بعد عما قد تصلان إليه ، وأنا أفوضك في مناقشة المسائل المالية " .

كانت الساعة قد قاربت على الواحدة ظهراً عندما وضع المفتاح في الباب . جاءه رنين العود من خلفه . أحست به يدخل في حرص . توقفت عن العزف ، وقالت :

" عدت يا "يوسف". " ثم أضافت وهي تتطلع إلى وجهه " يبدو عليك الفرحة . احك لي بسرعة ما الذي توصلت إليه " .

« أشياء جميلة يا حلوة ."

" قل بسرعة . دائماً هكذا على مهلك؟ "

قال :

" اعطني فرصة لألتقط أنفاسي . باختصار اتفقت معهم على فترة اختبار نجرب فيها أنا وهم . سأكتب مقالاً أسبوعياً في الجريدة اليومية ، ويوميات شهرية في المجلة كما كنت أفعل ".

أرقدت العود على الأرض واندفعت نحوه لتحتضنه بين ذراعيها:

" مبروك ... مبروك يا حبيبي ".

قال :

" ومقابل ذلك سأتقاضى ألف وخمسمائة جنيه شهرياً " .

ضحكت في سرور.

" تستحق أضعاف هذا المبلغ . من عندهم يستطيع أن يكتب مثلك».

بدا عليها التفكير " لكن هل تعرف ما الذي يتقاضاه الكتاب مثلك؟".

«لا ..... ليست عندي فكرة " .

" أنا وأنت سذج . من السهل أن يضحك علينا " .

قال :

«دعينا نفرح يا "سحر" . الآن نستطيع أن نبحث عن شقة أوسع

ننتقل إليها. ثم أصبح عندي مكتب في الجريدة ، صغير لكنه جميل يطل على نادي الصيد من أعلى. الجريدة تملك عمارة فاخرة ترتفع إلى إثني عشر طابقاً ".

" ومن أين حصل "حلمي طرخان" على كل هذا ؟ "

" العمارة ليست ملكاً "لحلمي طرخان" . صاحبها رجل رأسمالي كبير "وحلمي" ليس سوى مساهم من الدرجة العاشرة " .

سألت :

«ومن أين عرفت كل هذه التفاصيل ؟ "

كاد أن يقول من امرأة تعمل في الجريدة اسمها " نرمين الصباغ " باحثة اجتماعية درست في جامعة "جون هوبكنز" . صمت لحظة ثم قال: "من أحد الصحفيين الذين كانوا يعملون في مجلة "البراري" ثم انتقل إلى الجريدة . اسمه "سعد الله إبراهيم".

حملقت في وجهه ثم قالت:

" لكن ما الذي يستطيع روائي مثلك أن يكتبه في جريدة يملكها واحد من بتوع البزنس؟! "

قال :

" أوه يا "سحر" . سأكتب ما أريده . قال لي "حلمي" إن مهمة " آفاق مصرية " هي إرساء مفاهيم الحرية والديمقراطية الحقيقية ".

" لست سياسية لكن ما شأن رجل رأسمالي كبير بالحرية والديمقراطية الحقيقية؟"

" ربما تغيرت الأوضاع ولو نسبياً . هناك جيل جديد من الرأسماليين أكثر عصرية وفهماً للتطورات العالمية ويحتاجون إلى التخلص من بعض القيود البيروقراطية . "

" وأنت ستوظف إبداعك لخدمتهم أليس كذلك ؟"

" أحياناً تفسدين كل شيء . المسائل نسبية " .

" نسبية ... نسبية . . أصبحت تتحدث مثل السياسيين الذين عاصرتهم وأنا في الكلية . يبدو أنك لا زلت تنتمي إليهم " .

دفعت بذراعه بعيداً عنها وقامت . رفعت العود من على الأرض ومرت بأصابعها على أوتاره فصدر عنها صوت نشاز مثل الفأر عندما يقرض الخشب . ألقته على الأرض عند قدميها واختفت في حجرة النوم .

تذكر وهو يحلق ذقنه في الحمام أنه لم يقل لها أنه انتظر في حجرة السكرتيرة ما يزيد عن ربع الساعة قبل أن يدخل إلى مكتب "حلمي طرخان" وأنه لم يخبرها بالمصدر الحقيقي للمعلومات التي نقلها إليها . توقف لحظة ثم نظر إلى وجهه في المرآة. أحس أن شيئاً فيه تغير ، أن الشعيرات الرفيعة أصبحت تتحرك كالديدان . أمسك بالموسي واستأنف الحلاقة ضاغطاً على وجهه ليزيلها عنه ثم فحصه مرة أخرى فبدا له أنه عاد كما كان .



الفصل العاشر

استيقظ في ذلك اليوم ليجد مكانها في السرير خاليا . بحث عنها في الشقة ونادى عليها لكن دون جدوى . على مائدة الإفطار وجد بقايا الطعام التي تركتها فأدرك أنها لسبب ما انصرفت على عجل . تحت فنجان الشاي البارد وجد ورقة مطوية كتبت فيها تقول أنها ذهبت لتقابل الأستاذ المشرف على الرسالة ، وأنها ستحكي له عندما تعود.

كانا قد انتقلا إلى شقة واسعة تطل على حديقة الأورمان وافق صاحبها المقاول على التنازل عنها مقابل دفع مائة ألف جنيه تحت اسم مقدم الإيجار . بعد أن تفقداها سوياً ، جلسا يتناقشان في حديقة الأورمان . قال لها " صدقيني أنها صفقة . توسطت فيها زميلة لي في الجريدة ولولاها لما وافق الرجل على التنازل عنها . إيجارها ثلاثون جنيها في الشهر " .

" من هي ؟ هل أعرفها ؟"

تمطع في كسل ومد ساقيه تحت الشمس .

" لا أظن ... اسمها "نرمين الصباغ" ".

دقت ساعة الجامعة دقة واحدة وهي تفتح الباب وتدخل . سمع خطواتها في الصالة. كان يجمع بعض أوراقه ليضعها في الحقيبة . خلعت سترتها الصوفية وأسقطت جسمها في المقعد دون أن تقول

شيئاً .

سألها :

" مالك يا "سحر" ؟ "

التفتت إليه .

" في الصباح تسلمت خطابا مسجلا مرسلا من مكتب العميد يفيد أن الأزهر أوصى بعدم مناقشة رسالتي لنيل الدكتوراه ، وهذا بعد أن تحدد لها موعد يوم الأربعاء القادم فذهبت الى أستاذ القسم المشرف على الرسالة لأسأله كيف حدث هذا وما الذي سيقررونه إزاء تدخل الأزهر؟"

" وماذا قال لك ؟"

" إنه لا يعرف من الذي أرسل الرسالة إلى الأزهر " .

" طبعاً ... ما الذي تتوقعينه ؟ لن تعرفي منه شيئاً. ربما هو الذي حولها إليهم".

قالت محتجة :

" لا ... بالتأكيد ليس هو . إنه رجل في غاية الطيبة ويعاني من الأفاقين الذين سيطروا على الكلية ." سرحت قليلاً ثم قالت وعلى وجهها ابتسامة " إنه يذكرني "بيحيى حقي": "البيريه" و"الصديري" واهتمامه بى . كان يحدثني وكأن فى الجدران آلة تسجيل."

" أنت تثقين في الناس أكثر من اللازم . ألم تسأليه من الذي يمكن أن يكون قد فعل هذا ؟"

" سألته . قال لي يا بنتي وهل يمكن أن نعرف في هذه الأيام من

هم الجواسيس؟"

" ربما خاف ؟ "

" ربما ".

ظلا صامتين كأنهما يفكران في الموضوع .

" وماذا ستفعلين ؟"

ضغطت على شفتيها .

" سأنشرها في كتاب ، لن أرضخ . الاستسلام يقتلني ."

" هناك حركة بدأت في البلاد ".

«حركة !.." ومطت شفتيها " لن تفعلوا شيئاً " .

" فكرة الكتاب لا بأس بها . أفضل من رسالة توضع على رف مكتبة ويتراكم فوقها التراب ".

أشرق وجهها .

" أقل لك الحقيقة . وأنا خارجة من الباب التفت إلى الوراء ولمحت قبة الجامعة. أحسست فجأة أنني تخلصت منها ، من ثقل ربض على قلبي سنوات ."

"بالمناسبة قبل أن أنسى متى نستطيع أن نذهب سوياً لنختار لون المطبخ الجديد؟"

" اختره أنت . عندي لحن أريد أن أتفرغ للتدريب عليه ". فتحت الجريدة وأخذت تقرأ فيها . هتفت " لك عمود في الجريدة وصورة . غريبة ... ليس اليوم يوم مقالك الأسبوعي".

" وافقت على أن أكتب عموداً مرتين في الأسبوع ".

" لم تقل لي شيئاً عن هذا الاتفاق .

" أردت أن تكون مفاجأة . ألست مسرورة بهذا ؟"

«إنها مفاجأة فعلا ، على كل حال طالما أنك سعيد بهذا "... صمتت لحظة طويلة ثم سألته " والرواية يا "يوسف" ؟ "

قال :

" اطمئني سأنجزها .. النشاط يولد نشاطاً . أشعر أن إمكانياتي كلها أخذت تتفتح."

" أصبحت تمضي ساعات طويلة في الجريدة . بالأمس لم تعد إلا قبيل الفجر"

كنت أكتب العمود ، وأردت أن أراجع بروفته قبل أن ينشر ."

عادت تقرأ في الجريدة كأنها لم تسمعه . سألها :

" ما رأيك فيما كتبت ."

" لا بأس .."

" لا بأس ؟ ! "

«قلت لك أنني لا أفهم في السياسة . لكنني أشعر أن ما كتبته جزء من شيء يخطط له دون أن تدري " .

«أنا جزء من شيء يخطط له دون أن أدري ؟ طوال عمري وأنا في السياسة بشكل أو آخر ".

« ربما المشكلة هي أن السياسة عندي أن تسأل أولاً أين تضع قلبك ، ومع من.

نحا طبق البيض الذي كان يأكل منه جانباً ، وسرح في الحديقة

تحولت خضرتها إلى لون باهت تحت السحب أخذت تتجمع في السماء.

«ما علينا . أريد أن أخبرك بأنني اتصلت " بأم صلاح " وطلبت منها أن تعود إلينا".

" تاني . ضقت بهذه المشكلة تعودين إليها باستمرار . "أم صلاح" لا تصلح لهذه الشقة . مع ذلك تصرين عليها . افعلي ما تشائين . عندما كانت تقدم إلينا الطعام كنت أجد شعيرات من رأسها في الأطباق " .

"أم صلاح" تريحني نفسياً . أما أبو طرطور الذي أحضرته إلينا منذ أن انتقلنا إلى هذه الشقة فلا أطيقه . يتحدث إلي من طرف أنفه مثل أسياده الذي كان يعمل عندهم قبل أن يجيء إلينا . من الذي أوصاك عليه ؟ صديقتك "نرمين الصباغ"؟

قال :

«ليست صديقتي ، وليست هي التي أوصتني عليه . أصبحت تفتحين موضوعات لا داعي لها ". نظر إلى معصمه " لا بد أن أنصرف تأخرت وعندي ميعاد مهم ".

قالت وهى تحملق فى وجهه .

" اذهب ... اذهب الى ميعادك المهم ."

كان رذاذ من المطر يسقط من السماء عندما هبط من سيارته . وقف الرجال الثلاثة في الاستقبال عندما مرق أمامهم ليصعد إلى مكتبه في الدور الخامس . دق جرس التليفون فرفع السماعة . جاءه

صوت " نرمين الصباغ " يحمل معه الاحتمالات الغامضة المدفونة في جسدها .

« كيف أحوالك يا "يوسف"؟ . تأخرت اليوم . طلبتك مرتين " .

" كان عندي مشوار ."

« ألم تسمع الأخبار؟"

" لم أسمع شيئاً ."

«الرئيس قبض على ألف وخمسمائة وستة وثلاثين من المنتمين لجميع التيارات السياسية " .

" ألف وخمسمائة وستة وثلاثون مرة واحدة ؟ الرجل فقد عقله. "

«حلمي" يريد أن يلتقي بنا الساعة السابعة والنصف في مكتبه ."

أحس بالضيق . لماذا كلما أراد أن يناقشه في شيء يحرص على وجودها ؟ "

سأسمع الأخبار ثم أكتب مقالي الأسبوعي . يمكنك أن تمري علي قبل الموعد مباشرة . أرجو أن أكون قد انتهيت منه . أنا كما تعلمين أكتب ببطء " .

ستتعود يا عزيزي على الكتابة بسرعة لكن بشرط أن لا تغضب من لا يجب إغضابهم" .

أحس مرة أخرى بالضيق . صمتت لحظة ثم أضافت :

«سأمر عليك قبل الموعد بخمس دقائق " ، وأغلقت الخط .



الفصل الحادى عشر

عندما دخلا إليه كان "حلمي طرخان" جالسا فى مكتبه يشاهد التليفزيون. أغلقه وأشار إليهما بالجلوس ثم قام وأخذ يذرع الغرفة بخطوة بطيئة واضعا يديه فى جيب البنطال. كان يرتدى ملابس كاملة كأنه استعد للذهاب إلى سهرة بعد انتهاء اللقاء. بدا له فى بدلته اللامعة مثل "الميكانيكي" فى ليلة العرس. توقف أمامهما فجأة فعاد من تأملاته والتفت إليه. سمعه يقول:

«نحتاج إلى جرأة أكبر فيما نكتبه، إلى "تسخين" النقد الذى نوجهه للسياسات التى سار الحكم عليها".

أعادت "نرمين الصباغ" خصلة من شعرها إلى مكانها بحركة من رأسها وقالت:

"ألن يوقعنا هذا فى مشاكل نحن فى غنى عنها؟"

ظل صامتا لا يعلق. تعود هذا الأسلوب المتحدى من "حلمي طرخان" يسعى عن طريقه إلى إثارة تفكيرهم. يسميه "برين ستورمنج" لفظ أصبح يردده منذ أن دعى إلى لقاء استشارى نظمه قسم الشرق الأوسط فى جامعة "ييل". انشغل بإخراج علبة السجائر والولاعة من جيب السترة الداخلى.

ألقى إليه "حلمى طرخان" بنظرة فاحصة.

"لم تقل رأيك يا "يوسف"."

«أعتقد أن ما قالته "نرمين" في محله فالرجل في حالة توتر غير عادية وإلا لما أقدم على هذه الخطوة . لن يقبل أي نقد منا أو من غيرنا."

"يا "يوسف"... الحقيقة أنك خيبت أملي فيك. لم أعهدك هكذا. الرجل يقبض على كل هذا العدد من الشخصيات السياسية والنشطين وتخرج "الآفاق المصرية" باكر لتهلل وكأنه لم يحدث شئ ؟"

أحس بالغيظ. الآن أصبح يعطيه دروسا في الشجاعة. قال:

"ما الذي تريده بالتحديد؟".

"أن نكتب عدداً من المقالات ننقد فيها الإجراءات التي أقدم عليها على أن نحتفظ فيها بنبرة هادئة ولا نرفعها إلا بالتدريج."

"عبرت لك عن رأيي، وأنت رئيس التحرير".

لمح عينيه الباردتين تحملقان فيه. قال:

"أريد منك أنت أن تتولى هذه المهمة. لا أحد في الجريدة يستطيع أن يكتب العواميد التي تكتبها. أنت تركيبة خاصة. لم يمت الروائي فيك لذلك حرصت على إعطائك وضع خاص في الجريدة ".

"أتريد أن يصبح العدد ألف وخمسمائة وسبعة وثلاثين؟!"

ضحك ضحكة صاخبة، طويلة.

«لا يا صديقى العزيز. أريد منك أن تساهم فى الإعداد لما هو آت ربما بعد قليل".

"لا أفهم ما الذى ترمى إليه".

ابتسم وحرك يده كأنه يطرد ذبابة تحوم حوله.

"غداً ستفهم. الآن أريد أن أعرف. هل أنت مستعد لهذا أم لا"؟ أحس بنبرة تهديد فى صوته اختفت فى الحال. "تأكد أنها ليست وسيلة للتخلص منك. لا مصلحة لى فى ذلك. نحن نستفيد من مواهبك ولابد أن تشارك أنت فى أى منافع تأتى إلينا فى الجريدة. أنا لم أنس الزمالة القديمة ثم أصبحنا نبحر الآن فى نفس السفينة".

التفت إلى جواره. فى العينين الخضراوين رسالة تقول: سرت فى الشوط مسافة. إذا أردت أن تعرف واصلها حتى النهاية. أخذ نفساً عميقاً وقال:

"ولماذا لا تكتبها أنت.؟"

"أنا رئيس التحرير. إذا كتبت أنا يعنى هذا أن المكتوب يعبر عن رأى الجريدة ويؤدى إلى إغلاقها. لكن إذا كتبت أنت يمكن أن نوقفك مؤقتاً إذا وجد داع لذلك ثم نسوى الأمر بعد ذلك".

فكر لحظة ثم تساءل:

"ما الفائدة من صوت واحد ناقد وسط تهليل الأصوات المدافعة "؟

"أريد أن تثق فى كلامى. ما أقدمت على هذه الخطوة ما لم أكن

متأكداً من العواقب. بعد قليل لن تكون صوتاً منفرداً. نحن مقدمين على مرحلة جديدة".

كانت الساعة قد قاربت على الثانية صباحاً عندما عاد إلى البيت. دخل فى حجرة النوم وأضاء النور السهارى حتى لا يوقظها ففوجئ بها جالسة على حافة السرير. كانت لا تزال ترتدى الملابس التى خرجت بها فى الصباح. قال:

"يا "سحر". لماذا تجلسين هكذا فى الظلام؟"

"كنت فى مشوار".

"مشوار... إلى أين؟"

"إلى منزل أحد أصدقائى فى الفريق".

"فى هذه الساعة من الليل؟"

"قبض عليه فى الحملة. فذهبت إلى بيته لأسأل عن أمه. أصبحت وحدها".

جلس إلى جوارها على السرير.

"صديقك، وقبض عليه. من هو صديقك هذا؟"

"زميلى فى الفريق. كان يلحن بعض الأغانى التى كتبت كلماتها".

شعر بالعضلة الصغيرة ترتعش فى عنقه.

"لم تتحدثى إلى عنه قبل ذلك".

صمتت. قال:

"لماذا تصمتين؟"

لم ترد.

"صديقك هذا كنت تكتبين لألحانه الكلمات ثم تنامين معه في السرير. أليس كذلك؟".

لمعت عيناها السوداوان ببريق غاضب:

"قلت لك إنه صديق. إنني كتبت الكلمات لبعض ألحانه. إنه قبض عليه، ولا يعلم أحد متى يعود... هذا إن عاد... وكل ما يهمك هو أن تشمشم لكي تعرف إن كنت ذهبت معه إلى السرير. إناءك ينضح بما فيه".

«نعم... أريد أن أعرف... ردي عليّ... أسمعت ؟... ردي عليّ..."

قالت:

"لا... لم أذهب معه إلى السرير... لكني الآن نادمة على ذلك. على الأقل لو فعلت كنت قد أعطيت جسدي إلى رجل يستحقه ".

صرخ .

"بالطبع... تعودت على ذلك قبل أن تعرفيني".

أصبح وجهها أبيض مثل أغطية السرير. لمعت دمعة في عينيها نطرتها بحركة من يدها بعيداً . قالت:

"اتركني لحالي... سأذهب إلى الغرفة الأخرى لأنام. غداً سنسوي أمورنا... لا أريد أن أستمر على هذا المنوال".

سمع خطواتها السريعة تعبر الطرقة إلى غرفة النوم الصغيرة وصوت المفتاح يدور في الباب بعد أن أغلقته وراءها. ثم ساد الصمت في الشقة موحشاً، ثقيلاً.



الفصل الثانى عشر

رفع عينيه إلى الشرفة في الدور الخامس تدلت منها فروع الجهنمية جافة، عارية. مرت أمامه شابة تحمل حقيبة طويلة كتلك التى توضع فيها الآلات الموسيقية. تأملها ممشوقة القوام، نحيلة إلى أن خرجت من باب الحديقة. كان يحب صوت عودها .. له رنين خاص. الآن يقبع فى ركن الصالة إلى جوار المكتبة كالجثة في كفن أسود اللون. لماذا يحتفظ به؟ لماذا يحتفظ بذكريات إذا نسيها سيستريح، ذكريات حولت حياته إلى صور تصعد إلى ذهنه من جبها العميق ليعيش فى كابوس أصبح أسيره. تتأرجح في المنطقة الهلامية التى يحيا فيها. يسمع صوتها وهى تقول" "اذهب... اذهب إلى ميعادك المهم" كأنها كانت تعلم منذ ذلك الوقت أن هناك امرأة احتوته بعينين خضراوين وجسد أبيض خلق للجنس.

لمحها وهى تعبر الحديقة حاملة حقيبتها وفى رأسها خصلة الشعر الفضية تلمع في الشمس. للحظة بدا له كأنها عادت تتنزه في الحديقة كما كانت تفعل يومياً قبل إفطارها. ظل ساكنا ينتظر قدومها لكن تلاشت صورتها. أخذ يشاور بيده فى الهواء فغيرت "سحر بدوى" اتجاهها واقتربت من الدكة التى كان يجلس عليها. قام ومد يده إليها. لاحظت التجاعيد حفرت خطوطا عميقة حول عينيه. قالت: "صباح

الخير" ثم ضحكت "أظن أنك كنت تنتظر صديقتك هنا أيام الجامعة".

قال:

"لم تكن لى صديقة أيام الجامعة" وكاد أن يضيف "فيما بعد كنت أسكن فى شقة تطل على هذه الحديقة" ثم غير رأيه. "جئت لأستمتع بالجلوس فى هذه الحديقة ولأكون قريبا من المكان الذى قلت أنك ستكونين فيه هذا الصباح".

"هل تريد أن نبقى فيها أم ماذا؟"

"أنا هنا منذ ساعة تقريباً. لكن إن أردت يمكن أن نجلس فيها قليلاً".

"لا... إن كنت اكتفيت نستطيع أن ننصرف. إلى أين تريد أن نذهب؟".

"عندى اقتراح... يوجد مطعم سمك اسمه "خريستو" فى الهرم. وأنا أعشق السمك على الأخص المشوى بالزيت والليمون. هل توافقين على مشاركتى فى تناول وجبة الغذاء هناك؟"

"على شرط أن أشارك فى دفع التكاليف" ترددت لحظة "بما أستطيعه، وأن يكون سمكى أنا مشويا فى الردة".

"متفقان... لكن البيرة والحلو علىّ أنا".

عندما وصلا إلى المطعم كانت حديقته خالية إلا من أسرة كبيرة صفوا لها عدداً من الموائد قرب السور. اختار مائدة موقعها يسمح لهما برؤية الهرم فهزت رأسها موافقة ثم قالت: "أستأذن دقيقة... سأذهب إلى الحمام."

تتبعها تسير بخطوة نشطة إلي أن اختفت ثم أمسك بقائمة الأسعار وانشغل بفحصها.

عادت بعد قليل. لاحظ أنها وضعت على وجهها وشفتيها طبقة خفيفة من المساحيق. قال:

"أول مرة أراك تضعين على وجهك مساحيق".

صدرت عنها ضحكة صغيرة واحمرت وجنتاها.

"لا أضعها عادة. لكن فى بعض الأيام أشعر برغبة فى التغيير".

نظر إليها جالسة أمامه وقد خلعت البلوفر وعرضت ذراعيها القويتين للشمس. سألته فجأة:

"هل كانت "سحر العمرى" تضع على وجهها المساحيق؟"

حملق فى وجهها بخليط من الدهشة والضيق.

اقترب منهما أحد العاملين فى المطعم ومال عليه قائلا:

"مساء الخير يا بيه. حضرتك تحب تروح تنقى السمك اللى انتو عايزينو؟ السمك جوه هناك"... وأشار إلى المبنى المغلق للمعطم قرب باب الدخول.

وقفا أمام الصناديق المستطيلة أرقدوا فيها السمك صفوفا وسط طبقات من الثلج المبشور.

قال:

"يبدو لى أن "الدنيس" هو أحسن الموجود."

حملقت فى أحد الصناديق ثم قالت:

"أفضل البورى".

هل تريدين أى شئ آخر؟ جنبرى مثلاً؟"

«لا شكراً تكفيني هذه السمكة البورى". فأخرجها العامل من الصندوق ووضعها إلى جوار سمكة الدنيس. وسأل: "مشوى ولاّ مقلى؟"

"البورى مشوى فى الردة والدنيس بالزيت والليمون، وما تنساش تضيف خيار مخلل للسلطات اللى جبتوها".

خطر في بالها . عندما يقلق يشغل نفسه في التفاصيل . ستحاول أن تتذكر هذا ، لا داعي لأن تخرج مفكرتها اليوم.

عادا إلى جلستهما على المائدة وضعت عليها أطباق السلطات. طال الصمت فقال:

"ألا تريدين أن تتذوقي السلطات حتى يأتي السمك؟"

اقتطعت لنفسها قطعة من الخبز الرفيع المحمص وغمستها فى الطحينة. سألته:

"لماذا لم ترد على سؤالي؟"

تحرك في مقعده كأن شيئا ينغز فى جسمه من أسفل.

"لا... لم تكن تضع أية مساحيق... لكن من قال لك أن زوجتي كان اسمها "سحر العمرى"؟"

خطر لها أن تقول: "مسألة معروفة". فكرت لحظة ثم قالت:

"نرمين الصباغ".

شحب وجهه..

"بأى مناسبة ؟ "

"إنها رئيسة معهد الأبحاث الذى أعمل فيه. التقيت بها وسألتها عنك قبل أن أجئ إليك."

«وما الذى قالته لك أيضا"؟

"أن "سحر العمرى" اختفت ولا أحد يعلم إلى أين".

شعر بثقل تحت الضلوع كأن حجرة صغيرة استقرت فى معدته. ضغط بيده مكانها. أحسست بالتوتر فى ملامحه وهو يقول:

"ذهبت بعيداً فى أبحاثك. قلت لك أنك متى بدأت فى التساؤل لن تتوقفى عند حد. شئ يغرى أمثالك بالوصول حتى نهاية الأشياء. لذة معينة طاغية. مثل لذة الجنس مع امرأة جسدها حيوان ".

فوجئت بكلامه فظلت صامتة.

جاء عامل المطعم حاملا الأطباق على صينية مغطاة. أزاح الغطاء ووضع أمامهما الأطباق فارتفع البخار فى الجو الصافى للشتاء. تتبعه بنظراته، وأخذ يتشمم الرائحة الصاعدة منها فى استمتاع. ثم تنبه إلى وجهها بدا عليه الاضطراب. قال: "أنا آسف. ذكرت يوما أنك تبحثين عن الفهم. وها أنت تقتربين من فهم الرجال. إن أردت أن تفهمينهم أكثر من ذلك اسألى رئيستك "نرمين الصباغ"."

برقت عيناها فى وجهها.

"لا أريد أن أسترسل فى هذا الكلام. لا أدرى لماذا تطور بهذا الشكل السخيف كأنك تتعمد أن تبدد ما صار بيننا".

"وما الذى صار بيننا؟. أنت باحثة وأنا موضوع للبحث. لا تتعجبى إذا انتفضت عندما تغرسين أسئلتك فى الجرح. البحث جمع بيننا، ولابد أن نتحمل أنا وأنت نتائجه. هذا إذا اتفقنا على اتمامه. فى رأيي أنه لم يعد يوجد أمامنا مفر. أصبحت القصة مغرية. فاسألى وأنا سأجيب على كل تساؤلاتك." نظر إلى طبقها. "لماذا تركت السمك ؟ سيبرد ويصبح بلا طعم؟. أنت تقسين علىّ دون أن تدركى. مع ذلك أعترف أنك أسديت إلىّ معروفا لا أنساه. فتحت أمامى الفرصة لكى أخرج من نفسى ما دفنته فيه وربما لأتخلص منه ,لكى أعتصر الألم منها مثلما أعتصر هذه الليمونة بين أصابعى".

ألقى بقشرة الليمونة خالية على الأرض وحملق فى وجهها.

"يبدو أننى قضيت على شهيتك". أزاح طبقه جانبا "أنا أيضاً لا رغبة لى فى مواصلة الأكل".

أشار لعامل المطعم كان يقف على مسافة منهما. عندما جاء أخذ يهمس فى أذنه. هز الرجل رأسه نافيا فدس أصابعه فى أحد جيوب سترته وأخرج أوراقاً نقدية أعطاها له ,ثم قال:

"ابعت حد يشيل الأطباق دى، وهات اللى قلتلك عليه. بس بسرعة"..

قال: "حاضر يا فندم" وسار بخطوة سريعة مبتعداً عنهما.

نظر إليها.

"سيحضر لنا زجاجة نبيذ أبيض عليها بطاقة عصير تفاح".

"لا أريد نبيذاً... لا أريد شيئاً على الإطلاق".

"هل تريدين أن ننصرف؟"

نظرت فى عينيه وقالت:

"أريد فقط أن تتخلص مما فيك".

"لماذا؟"

ظلت صامتة لا ترد.

"سأعفيك من الجواب. ما الذى قالته لك "نرمين الصباغ" بعد ذلك"؟

"إشاعات تافهة لا معنى لها".

"مثل؟".

"أنها أحبت موسيقاراً جزائرياً يصغرها بعشرين سنة وهربت معه".

ضحك ضحكة طويلة وعاد إلى وجهه شئ من المرح.

"إشاعة تعكس أحلام اليقظة عندها. احك لى الإشاعات الأخرى".

"أنكما اتفقتما على الانفصال وسافرت للتدريس فى معهد العلوم الاجتماعية "بالهيج" فى هولندا. وأنها نشرت رسالتها هناك فى كتاب".

"كتابها نشر هنا فى مصر".

«هل عندك نسخ منه... إن كان أرجو أن تعطينى نسخة".

"حاضر... سأعطيك نسخة موقعة منها."

نظرت إليه فى تساؤل فتفادى نظرتها وقال:

«إشاعتان فقط؟".

"نعم. لم تردد غيرهما".

ابتسم.

"لا. رددت إشاعة ثالثة".

"أنت سمعتها إذن؟".

صمت ثم قال ببطء.

"أنني قتلتها".

هزت رأسها.

"لكنها سخفتها".

"لماذا؟ إنها الإشاعة الوحيدة التي لها أساس من الصحة".

مد يده إلى كأس النبيذ وأفرغه في حلقه.

****

الفصل الثالث عشر

مر ما يقرب من شهر. انقضت أيامه دون أن يتبادلا فيها سوى كلمات قليلة لتسيير ما كان لابد من تسييره. عندما تكون فى البيت لا تخرج من غرفتها إلا للذهاب إلى الحمام أو تناول وجبة خفيفة فى المطبخ تعدها لها "أم صلاح". تجلس معها لبعض الوقت وتتحدث معها. فإذا دخل عليهما صدفة تنظران إليه فى صمت فينسحب.

وضعت ملابسها في "البلاكار" الكبير يرتفع حتى السقف. تنام الليل على سرير ينقلب في النهار إلى كنبة تجلس عليها. أخرجت "التواليت" من الغرفة ووضعت منضدة طويلة مكانها كانت تحتل جزءاً من الشرفة وتعودت أن تكتب عليها أحياناً عندما تريد أن تعمل فى الهواء الطلق.

لكن في ذلك اليوم وهو يتأهب للذهاب إلى الجريدة اقتربت منه وقالت في هدوء:

"يا "يوسف". حان الوقت لكي يبحث كل منا عن حياته بعيداً عن الآخر، ولابد أن نناقش كيف يمكن ترتيب هذا الوضع".

تفادى النظر إليها. ظل صامتاً لا يرد. قالت:

"يا "يوسف" رد عليّ".

التفت إليها كأنه يبذل جهداً ليخرج من الصمت.

"باكر يا "سحر" حوالى الساعة الثانية بعد الظهر. سأسهر الليل كله في الجريدة ولن أستطيع أن أستيقظ قبل الواحدة".

في اليوم التالي كانت الساعة تشير إلى الواحدة عندما خرج من غرفته. أحس في قلبه بالثقل الذي أخذ يلازمه أغلب الوقت. بعد تلك الليلة لم يسألها عن زميلها الذي أشارت إليه، أو يحاول أن يعرف من هو. تملكته حالة من الفتور كأن الحياة تسربت منه فأصبحت كل الأشياء سيانا. يؤدي ما عليه كالآلة دون أن يحس.

كانت البلاد تمر بفترة مضطربة، وكانت الإشاعات تملأ الجو، يسمعها كل يوم. أحس كأن مخاطر تحوم حوله فتعود أن يعرض ما يكتبه على "حلمي طرخان" حتى يطمئن فحزهذا في نفسه. كأن شخصيته أخذت تضمحل. يسمعها وهو نائم في السرير، أو وهو جالس وحده في الشرفة، أو وهو يكتب العمود اليومي الذي أوكل إليه ليحل محل مساهماته الأخرى: "لا... لم أذهب معه إلى السرير. لكني الآن نادمة على ذلك. فلو فعلت كنت قد أعطيت جسدي لرجل يستحقه".

كانت ساعة الجامعة تدق الثانية بعد الظهر عندما أحضرت إليهما "أم صلاح" قدحين من القهوة. لكن في تلك اللحظة دق جرس الباب دقات متتالية فيها توتر. فانطلق خارجا من غرفة المكتب وتوجه إلى باب الشقه ليفتحه. وجد جارهم في الدور السادس واقفا أمامه. كان شاحب الوجه ترتعش يداه، وعلى ملامحه علامات الانفعال الشديد. خرجت منه كلمات لاهثة سريعة لم يلتقط منها شيئا فأجلسه على الكنبة حتى يهدأ، وطلب من "أم صلاح" التي وقفت أمامهما مذعورة أن تحضر له كوبا من الليمون.

لم تكن علاقته بالرجل تتعدى تحيات الصباح والمساء. يعرف فقط أنه كان يعمل مديراً لدار الكتب، وأنه يعيش وحده بعد أن ماتت زوجته. فظن أنها مشكلة شخصية تلك التي جاءت به. شرب كوب الليمون وبعد قليل خف انفعاله فسأله:

"يا "أستاذ شحاته". ما الذى حدث؟"

قال:

«الرئيس." وبلع ريقه.

"ماله"؟

"قتلوه".

ظن أنه مصاب بحالة من الهلوسة. ربت على كتفه وقال:

"اهدأ يا "أستاذ شحاته". اهدأ.."

"أقول لك قتلوه. اغتالوا الرئيس وهو يستعرض الجيش بمناسبة عيد النصر".

"كيف عرفت؟".

"من التليفزيون. كنت أشاهد الاحتفال فرأيت ما حدث ثم توقف الإرسال. الآن يذيعون أناشيد، وموسيقى عسكرية".

«هل أعلن شئ عما تقوله"؟

«لا... لكن أنا متأكد... رأيت رجلا يرتدى ملابس عسكرية يطلق الرصاص من أمام المنصة وآخرون يجرون. ورأيت الرئيس يسقط والواقفون حوله ينبطحون".

"بهذا الوضوح"؟

"بدوا كالأشباح، لكن عندما أريد أن أرى ألجأ إلى عدسة مكبرة".

شعر بقلبه ينبض. التفت فوجدها واقفة في الصالة على بعد قليل تتأمل الرجل الجالس على الكنبة، ارتدى "روبا" أحمر وخفاً من الصوف، وأخذ يمسح صلعته بمنديل.

"يا "يوسف". هل أنيع شئ رسمى".

قال:

"لا... سأذهب إلى الجريدة وأتصل بك من هناك".

"ربما لن أكون في البيت. عندى موعد".

نظر إليها دون أن يسألها فقالت:

"مع الطبيب... طبيب العيون... حاجة بسيطة".

نظر إلى الرجل أعاد المنديل إلى جيبه وجلس مكانه كأنه ينتظر شيئا..

خاطبه قائلا:

«لابد أن أذهب إلى الجريدة فوراً. إن أردت أن ترتاح عندنا قليلا "أم صلاح" موجودة".

"لا شكراً. سأصعد إلى شقتى لأتابع الأخبار"..

قام وتوجه إلى الباب فلحق به ليفتحه... شد على يده بسرعة وقال:

"شكراً يا "أستاذ شحاته". إن احتجت أى شئ اتصل بنا". ثم عاد إليها.

"يمكننا أن نلتقي الليلة عندما أعود".

لم ترد. فظل واقفا في تردد ثم توجه إلى غرفة المكتب. عاد حاملاً حقيبته الجلدية. لم يجدها في الصالة فخرج من باب الشقة وهبط على السلالم بسرعة دون أن ينتظر المصعد.

عندما وصل إلى مبنى الجريدة لم يجد موظفي الاستقبال أو الأمن في أماكنهم. استقل المصعد إلى الدور الثامن وسار في الطرقة دون أن يقابل أحداً. دخل إلى غرفة "حلمي طرخان" فوجدها مزدحمة بعدد من المحررين. كان جالساً خلف المكتب يقلب في بعض الأوراق كأن شيئا لم يحدث. اقترب منه فرفع رأسه وعندما رآه ابتسم ثم التفت إلى الموجودين بالحجرة وخاطبهم قائلاً:

"أرجو من حضراتكم أن تعودوا إلى مكاتبكم". ثم نظر إلى مسئول الأمن. "وأنت يا كابتن مُر مع معاونيك على المبنى كله وتأكد أن كل شئ منضبط. بسرعة لو سمحتم. لا أريد أن يترك أحدكم مكتبه. قد أحتاج إليه في أي لحظة". أشار إليه بهزة من رأسه فتقدم وجلس أمامه على المكتب. انتظر حتى أصبحت الغرفة خالية وقال:

"يا "يوسف" اذهب إلى مكتبك الآن. أريد أن أقوم بمكالمة عاجلة قبل أن نتداول فيما حدث".

سأله :

"ما الأخبار؟"

«يقولون أنه في حالة حرجة. لكني أظن أنه انتهى". "يريدون كسب الوقت لترتيب أمورهم". نظر إليه وهو يبتسم. "ألم أقل لك أنه ربما تغير

شيء". حملق في وجهه. "بالطبع لم أكن أتوقع ما حدث لكنى أحسست بشيء فى الجو بعد عملية القبض الواسعة التى تمت. لا تغادر مكتبك... سأطلبك بعد نصف ساعة على الأكثر".

عندما عاد فى المساء كانت فى غرفتها. توجه إلى المطبخ وفتح الثلاجة ليخرج منها زجاجة مياه، وصينية فيها مكعبات من الثلج ثم بحث عن كأس كبير مضلع بين الكئوس. وضع هذه الأشياء على صينية وحملها إلى غرفة مكتبه. أخرج زجاجة ويسكى من البار الصغير المختبئ خلف ضلفة فى المكتبة وصب لنفسه جرعة كبيرة منه . أضاف إليها قليلا من الماء ومكعبين من الثلج. ارتشف من الكأس رشفات سريعة دون أن يجلس ثم ترك الكأس على المنضدة بما تبقى فيه وسار في الممر إلى باب غرفتها. نقر عليه بحرص فجاءه صوتها.

"من؟"

"أنا "يوسف" يا "سحر"."

سادت لحظة صمت.

"ماذا تريد؟".

"ألم نتفق على التشاور فيما بيننا؟"

ساد الصمت من جديد ولمدة أطول فظن أنها لن ترد عليه، ثم جاءه صوتها يسمعه بالكاد من خلف الباب.

"انتظر قليلا. سأفتح لك".

أحس بها تتحرك فى الغرفة ثم سمع المفتاح يدور فى الباب. وجدها واقفة أمامه. وجهها الشاحب تحيط به جداول الشعر الأسود تركته

حراً فبدا له أكثر شحوباً مما رآه في أى وقت. كانت ترتدى روبا من القطن أبيض اللون. جاءه

الإحساس بأنه منذ الآن لن يرى سوى لون الموت.

جلست على السرير وأخذ مكانه على المقعد. قال:

«عدت منذ قليل. مات الرئيس".

قالت:

"سيأتى غيره. كل شئ سيكون على مايرام بل بالنسبة إليهم ربما أفضل. اسأل "حلمى طرخان". إنه يعرف".

نظر إليها فى استغراب.

"ماذا تقصدين؟"

"أليس هو الذى جعلك تكتب عمودك اليومى".

قال محتداً:

"أنت متحيزة ضده، ومنذ أن حدث بيننا الخلافات أصبحت متحيزة ضدى".

«لا لست متحيزة ضده. عرفته منذ زمن بعيد. أما أنت" ... هزت كتفيها... "أجئت تحدثنى عن اغتيال الرئيس، ورئيس تحريركم؟"

أخذ نفسا عميقا.

"لا... يا "سحر". جئت لأتحدث معك عما جرى بيننا".

"بعد فوات الأوان؟"

"الأوان لم يفت... يمكن إن أردت أن نصلح ما بيننا".

"طبعا كل شئ عندك سهل. مع ذلك حتى إن أردت أنا جئت أنت

متأخراً".

قال في حماس:

"كيف يا "سحر". ما فات يمكنني تعويضه".

ابتسمت.

"يا "يوسف". ابتعت اليوم كيلو من البرتقال الأخضر. ستجده في الثلاجة. خذ

منه حبة واحدة واغسلها جيداً. ثم أحضرها لي".

عاد بعد قليل ومعه البرتقالة على طبق صغير. تناولته منه وغرست فيها أسنانها. ظلت تنتزع منه قطعا صغيرة وتمضغها في نهم حتى لم يبق منها سوى أليافها.

قالت:

"أتتذكر. كنت تنتظرني أحيانا في موعد انتهاء حفلات الفرقة ومعك كيس من البرتقال الأخضر. لم تعد تبتاعه لي كما كنت تفعل. ضع الطبق على المنضدة. لا أريد أن نتناقش الليلة. أنا متعبة... متعبة جداً. أريد منك أن تخلع حذاءك وأن ترقد جنبي. أن أسمع أنفاسك تتردد في الصمت. أن تضع ذراعك حولي لأنام ولأستيقظ في حضنك عندما يأتي الصباح".



الفصل الرابع عشر

وقف أمام النافذة يشاهد سقوط الثلوج بدأت خفيفة مثل ريش الحمام الزغب يتهاوى من أعلى، ثم زادت سرعتها بالتدريج وتحولت إلى ما يشبه بتلات الورد الأبيض. أحس كأن الكون يلفه كفن لا نهائي. سمع الهمس المميز لحذاء الممرضة وهي تنسحب وتغلق الباب وراءها فأدرك أنها حقنتها بالمسكن الذى لم تعد تهدأ بدونه. فى بعض الأيام لا يطيق أن يراها راقدة في سريرها تحملق فيه عيناها السوداوان، زاد اتساعهما فى وجهها، ظل يضمر يوما بعد يوم.

استيقظ فى ذلك الصباح على أناتها. سحب ذراعه وصدره برفق من تحت رأسها فالتقت عيناه بعينيها. رأى فيهما شيئا كالخوف الطفولى يحاول أن يتخفى. سألها:

"مالك يا "سحر".

قالت:

"الألم". وأشارت إلى التجويف تحت ضلوعها.

"منذ متى؟".

"منذ شهور... لا أتذكر بالتحديد. كان خفيفا ثم زاد بالتدريج".

«لماذا لم تقولى لى شيئا؟".

ابتسمت. استطرد "قلت لي بالأمس أنك ذاهبة لطبيب العيون".

"ذهبت إلى مستشفى "الشمس". رئيس فرقة الموسيقى تربطه بالمدير صلة قرابة".

قفز خارج السرير وتوجه إلى الصالة. رفع سماعة التليفون واتصل بمكتبه في الجريدة ليبلغ السكرتيرة أنه سيتأخر.

كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة والنصف عندما وقفا أمام استقبال مستشفى "الشمس"... خلف الحاجز جلست حكيمة تحمل رأسا صغير الحجم على كتفين مكتنزتين باللحم. أخذت تفحصهما وعلى وجهها علامات الضجر. قالت:

"لا توجد غرف خالية".

قال:

اتصلنا بالمدير ,وطلب منا أن نحضر في الحادية عشرة والنصف. أبلغيه أن "سحر العمري" ,و "يوسف البحراوي" عند الاستقبال.

حجزوا لها غرفة في الدور الرابع فذهب إلى البيت ليحضر إليها حاجاتها. كاد أن ينسى العود. في آخر لحظة لمحه يطل من خلف ستارة وإلى جواره حذاؤها الأبيض. أمسك بطرف العود وحمله حتى الصالة. فتح باب الشقة وأخرجه ومعه الحقيبة على العتبة ثم كأنه تذكر شيئا ذهب إلى المطبخ وطلب من "أم صلاح" أن تضع حذاءها المطاطي في كيس من البلاستيك وأن تلحق به ليضعه في السيارة مع الأشياء التي سيحملها إلى المستشفى.

نظر إلى معصمه. مرت نصف ساعة وهو يقف أمام النافذة دون أن

يتـحـرك كـأن الزمن توقف. كـفت الثلوج عن السـقـوط بـعـد أن غطت الأرض بكسـائها الأبيض. لمح سـيـارة للكسح صـفـراء اللون تـحـمل في مقدمتها جاروفاً كبير الحجم. لا يرى وجه السائق. غطى رأسـه بطاقية من الصـوف. يرى فقط البـخـار تطلقه أنفاسه في الجو وقطعا من الثلج تتطاير خلفه. تقدمت السيـارة تاركة وراءها طريقا من الأسـفلت يتلوى كالثعبان الأسود.

•

سـمـع صـوتا كـالحفيف تردد في الغرفة فاستدار. كانت تـحـاول رفـع الغطاء فوق وجهها لتحول دون عينيها ووهـج الثلج يتسرب إلى الحجرة. أمسك بالستائر وأغلقها تاركاً فاصلاً صغيراً . أحس بسـاقيه تعبتا من الوقفة فجلس على المقعد، بظلال تزحف عليه، بالأشياء في ذهنه تتحرك خلف غشـاوة. يرى أنابيب تتدلى من زجاجة، ونقـاطاً بلورية تسـقط من فتحة ثم تستمر في طريقها، ومعاطفا تميل عليها ووجوها تبتسم أو تحملق فيها، وعربة أرقدوها عليها تختفي خلف باب وهو جالس على مقعد وحده، واسطوانة سـوداء يدخلانها إليها، ثم يرى ملامـحها تتلوى صارخة.

فجـأة تلاشت هذه الصـور ليراها جـالسـة في زورق وقد مـالت فـوق حافته لتضع يدها في المياه. جاء الربيع والجو صاف. اليوم يوم جمعة. اتصلت الممرضة لتقول أن ابنتـها وقعت على وجـهـهـا . قالت: "أريد أن نستـقل زورقـا وندور به حـول جـزيرة "الوراق". هل نسـيت أنني ولدت هناك ؟ "

سـاعدها في ارتداء "جـوبة" سـوداء وقمـيص أزرق فاتح. لف حـول كتفيـها الشال ثم ركع وألبسـها جرابا من القطن وحـذاءها المطاطي.

نظرت إلى نفسها فى المرآة وهى جالسة على السرير وقالت: "الملابس أصبحت ترفرف حولى". تأملها نحيلة، شفافة. عيناها الواسعتان زاد بريقهما والخصلة البيضاء مازالت لامعة.

قال:

"أنت جميلة...".

أعدت لهما "أم صلاح" ترمساً من التمر الهندى، وترمساً من الشاى باللبن، وجبناً قريشاً مخلوطاً بالزعتر وزيت الزيتون، وخياراً وجرجيراً وخبزاً محمصاً، وزجاجتين من المياه، وبقلاوة صنعتها فى اليوم السابق. أضاف إلى ما أعدته فى آخر لحظة حبتين من البرتقال الأخضر.

بعد أن تناولا قليلا من الطعام تمددت على الوسائد ورأسها على حجره.

سألها:

"أتريدين أن تنامى؟"

قالت:

"لا ,,,خسارة النوم فى يوم كهذا... كلمنى؟

"عن ماذا؟"

«عن أى شئ تراه".

أخذ نفسا عميقا.

"استقلت بالأمس من الجريدة".

رفعت إليه عينيها.

"لماذا؟"

"أريد أن أبقى معك".

"الممرضة ترعاني بالنهار، و"أم صلاح" موجودة أثناء الليل، وأنت أصبحت رئيساً للتحرير. أخشى أن تندم على ما فعلت".

"لن أندم. على العكس. أحسست بالراحة. ليس هذا طريقي".

"مر وقت طويل قبل أن تكتشف هذه الحقيقة. أهو مرضي؟"

"لا... ليس هو. كنت على حق. هناك لعبة قذرة كنت جزءاً منها. والآن لا أريد أن أستمر. ثم لم أعد في حاجة إلى مالهم".

أمسكت بيده ووضعتها على خدها. لمعت دمعة في عينيها. انساب الزورق ببطء خلف الجزيرة، قالت:

«أترى العصافير. لن تجد هذا التنوع في أي مكان آخر من القاهرة، حمام بري، وأوز عراقي، وأبو قردان، وعصافير ملونة وفي الفجر الكروان. تشعر هنا بالأمان بعيدا عن ضوضاء المدينة وزحام الناس. هنا لا تخاف". سرحت "هنا كنت أجري مع الأطفال وأستحم في المياه".

ضحك.

«ليتني عرفتك في تلك الأيام. سمكة تسبح في المياه وأنا من ورائها". مال عليها وقبلها على شفتيها فأحس ببرودتهما تسري إليه ...

كانت الشمس تقترب من الأفق عندما عادا إلى البيت. همت بالدخول إلى غرفتها فأوقفها وأشار إلى حجرة النوم التي كانت تنام فيها.

«كانك هنا. سأنتقل أنا إلى الغرفة الأخرى. استريحي فيها الآن... وغداً يمكننا أن نقوم بإعادة ترتيب الأشياء.»

نظرت إليه ثم قالت:

« نادى على "أم صلاح" لتحضر إلى ما احتاج إليه. سأذهب إلى الحمام وأغير ملابسي...» صمتت لحظة ثم أضافت : " ثم إلى جوارى الليلة. لن أزعجك فأنا اليوم على ما يرام".

سمع نقراً خفيفاً على الباب فانتفض. دار بعينيه حول الحجرة تسرب إليها شعاع من الشمس. عند الباب ظهر رجل يرتدى معطفا أبيض. وقف منحنياً قليلاً إلى الأمام كأنه متأهب للإقدام. عيناه صغيرتان لامعتان تحت الحواجب المصبوغة السوداء. قال بالإنجليزية:

"أستاذ "يوسف". مساء الخير. الساعة الثالثة والنصف الآن. هل أنت مستعد".

من ورائه ظهرت ممرضة تحمل صينية من المعدن فيها حقن، وقطن وشاش وأشياء أخرى لم يتبينها. نظر الطبيب إليها.

«اتركى الصينية على المنضدة، واذهبى لإعطاء السيدة "هابر داس" حقنتها اليومية. سألحق بك عندها". التفت وقال:

«جاهز؟ "

هز رأسه.

اقترب من السرير. مسح على ظهر يدها بأصابعه ففتحت عينيها. خطر في باله... كل شئ فيها يفنى ماعدا عيناها. همست ببضع كلمات لم يلتقطها فمال عليها.

"هل جاء الوقت؟"

قال:

"نعم".

التفت إلى الطبيب ظل ينتظر قرب النافذة. انتقل إلى طرف السرير حيث يستطيع أن يراها. اقترب الطبيب من المنضدة الموضوعة إلى جوارها. تناول حقنة من البلاستيك ومزق غلافها ثم أخرج الإبرة من جرابها. دس يده في جيب المعطف وأخرج منها أمبولة كسر زجاجها الداكن وأفرغ محتوياتها في الحقنة. وضع الحقنة في الصينية وأمسك بقطعة من القطن بللها بنقاط صبها من زجاجة كحول بنية اللون. تناول حزاما من المطاط كان موضوعا على المنضدة ولفها حول ذراعها أعلى الكوع ثم أخذ يدعك على ذراعها من أسفل إلى أعلى. أدخل الإبرة في وريدها بعد أن فشل في تصويبها مرتين. فك الرباط وأفرغ محتويات الحقنة ببطء وهو يحملق في وجهها ,ثم سحب الإبرة من وريدها. أسقط محتويات الصينية في كيس من المطاط أخرجه من جيب المعطف، وأضاف إليها الحقنة والإبرة بعد أن أعادها إلى جرابها. شد على يده قائلاً... "سأراك باكرا الساعة الخامسة بعد أن تنتهي من الإجراءات". ربت على كتفه وخرج من الغرفة مغلقاً الباب وراءه.

فتح الستائر ففوجئ بالشمس تتسلل أشعاتها إلى الغرفة. أطل من النافذة إلى السماء أصبحت زرقاء صافية، إلى مساحات الثلج تمتد بلا نهاية.

جلس على المقعد إلى جوارها... مر الوقت فاكتست الغرفة بألوان الشمس الغاربة. وفى لحظة من اللحظات فتحت جفونها. ومض فى عينيها ضوء باهر ثم تلاشى. ظل دون حركة يتأمل محجرين من السواد الصامت. قام وأغلق جفونها ثم توجه إلى النافذة وأغلق الستائر.

فى الصباح عندما دخلت الممرضة وجدته جالساً فى مقعده. نظر إليها ثم إلى الغرفة كأنه لا يدرك ما جاء به إلى هذا المكان. ثم قام وخرج من الباب دون أن يلتفت وراءه.



الفصل الخامس عشر

فصل فيشة التليفون والتفت إليها.

"معذرة. مكالمة من ناشري السابق يسألني إن كان لدي جديد بعد كل هذه المدة".

دست يدها في الحقيبة وأخرجت منها جهاز التسجيل. ترددت لحظة ثم أعادته إليها.

قالت:

"يوم الجلسة العاصفة في مطعم "خريستو" صرحت لي بما أقلقني كثيراً، أن الإشاعة التي تدعي أنك قتلتها فيها أساس من الصحة".

صب لنفسه جرعة من الويسكي وابتلع نصفها. أطل من الشرفة إلى مساحات الليل. في السماء هلال رفيع اختفى خلف السحب المتناثرة. التفت إليها... لاحظ قليلاً من الكحل حول عينيها. قال:

"هذه حكاية طويلة".

"أريد أن أسمعها. باكر يوم الجمعة. أستطيع أن أتأخر إلا إذا كنت تريد أن تتخلص مني بسرعة".

"لا على العكس. يعجبني التحدث معك حتى إذ ا كنا نتشاجر أحيانا".

"أشكرك". ابتسمت. "إذن احك لي".

"تتذكري أننا ذهبنا في رحلة نيلية حول جزيرة "الوراق". بعد أن

عدنا قالت لي: "أريد أن أجلس على الشرفة لأعزف على العود. أهملته طوال الأسابيع الماضية رغم أنه عندي حفلة بعد عشرة أيام".

في تلك الليلة نامت مرتاحة. تناولنا إفطارنا سويا. ثم ذهبت إلى الجريدة. لكن بعد ساعتين دق جرس التليفون. رفعت السماعة فسمعت "أم صلاح" تقول "يا سي "يوسف" إلحق الست "سحر"... المرضة حتقولك ".

لم أنتظر حتى تكمل كلامها. هبطت على السلالم... أخرجت سيارتي من الكراج، وانطلقت. عندما فتحت باب البيت سمعت "سحر" وهي تصرخ صراخاً لم أسمع مثله". توقف لكي يبتلع بقايا الويسكي. "منذ ذلك اليوم لم تتوقف عن الصراخ أو الأنين إلا عندما تحقن بالمسكنات أصبحت جرعاتها تتزايد يوماً بعد يوم. وحتى أضمن إسعافها في أي وقت تدربت أنا على الحقن. تحولت بالتدريج إلى هيكل عظمي مغطى بالجلد وظهرت على جسمها بقع غريبة لونها أصفر... ومع كل هذا رفضت أن تذهب إلى المستشفى. كلما اقترحت عليها هذا تقول... "أنا عارفة... لا فائدة... سينهبون نقودنا وكفى". الأدهى من ذلك أنها أصبحت تطلب مني أن أحقنها بجرعة كبيرة من المسكنات حتى أنهي حياتها. أرى عينيها أمامي الآن وهي تطلب هذا مني سوادا واسعا مفعما بالألم والتوسل".

لمحت الرعشة في أصابعه الممسكة بالكأس. أعاد الكأس إلى مكانه فاصطدمت يده بملعقة وقعت على الأرض. انحنى ليلتقطها ويعيدها إلى مكانها ثم مسح بيده على وجهه.

سألته:

"أتريد أن نتوقف؟"

قال:

لا... أريد أن أتحرر. تردد ثم أضاف "وأن تتحرى أنت. استقلت من الجريدة... بدأت أفكر في هذا منذ اغتيال الرئيس. شئ في الجو... في الجريدة... في "حلمي طرخان"... و"نرمين الصباغ" وابتساماتهما...

ترددت لكن صرختها في ذلك اليوم حسمت الأمر. استمرت ترجوني لكي أريحها من عذابها. لم أستطع. كانت خطوة تحتاج إلى شجاعة لم تكن عندي... أو ربما إلى حب أكبر من الحب الذي كنت أحمله لها. لا أعلم... ثم جاءتني فكرة. الدكتور "بافل" الذي عالجني من الفيروس في مصحة "كارلوفي فاري"، لماذا لا ألجأ إليه؟ بحثت عنه. في البداية لم أهتد إليه... وصل إلى سن المعاش وترك المصحة ليعيش في "براغ"، فاتصلت بأحد الذين تعرفت عليهم في معهد الدراسات الاشتراكية ورجوته أن يبحث عنه، وبعد أسبوعين اتصل بي وأعطاني عنوانه، ورقم تليفونه".

صب لنفسه جرعة جديدة من الويسكي. وأخذ رشفتين. قال: "تمر الحنة والبقلاوة معمولين في البيت. ابن "أم صلاح" أصبح يرعاني بعد أن توفيت".

قالت:

"سآخذ ما أريده بنفسي... أكمل "ما كنت تحكيه".

«فوجئ الرجل عندما اتصلت به وعاتبني عتاباً شديداً لأنه عندما كان يراسلني لم أرد عليه. أفهمته أن ظروفي كانت صعبة وأنه لم يكن لدي ما أريد أن أقوله. ثم أفهمته أن سبب اتصالي به هو احتياجي إلى مساعدته في مسألة تتعلق بزوجتي فأخذ يستمع إليّ. شرحت له الوضع وقلت له إنني أبحث عن طبيب مستعد لحقنها بجرعة كبيرة من المسكنات لينهي العذاب الذي تعيش فيه. قال لي أنه ليس من أنصار مثل هذه الإجراءات حتى لو كانت حالة ميئوسا منها تماماً. إن فيها

مخاطر لمهنة الطب والمرضى يصعب التحكم فيها. لكنه يعرف طبيباً في "هولندا" حوكم وبرئ لأنه لجأ إليها في بعض الحالات، ووعد أن يبحث عن وسيلة الاتصال به. بعد مدة لم تطول اتصل بي وأعطاني المعلومات التي كنت أبحث عنها. هكذا تعرفت على الدكتور "برتس والدنباخ"، ثم سافرت معها إلى "الهيج" على أمل أن يقوم هو بما كانت تريده مني".

"ألذلك قلت لي... ما معناه أنك مسئول عن موتها؟"

قال:

«لا... كنت أتمنى أن يكون هذا هو السبب".

أحسست أنه أصبح فجأة رجلاً عجوزاً منهاراً في كرسيه.

«في إحدى الأمسيات قبل أن أتفق مع الدكتور "والد نباخ" على القيام بالعملية التي عرضتها عليه دعاني على العشاء في بيته. كان عازباً ولم يكن على مائدة العشاء سوانا. في تلك الليلة تناقشنا طويلا عن العلاقة بين الحالة النفسية للمريض والسرطان. قال إن العلاقة بين أمراض القلب مثلا والتوتر العصبي معروفة لكن الأطباء والباحثين لم يربطوا بين الاكتئاب والسرطان وأن هذا في رأيه قصور في التفكير فحكيت له عن حياتي مع "سحر". ظل يتأملني طويلاً ثم قال:

«الإنسان شبكة معقدة من التفاعلات الكيميائية والكهربية التي هي أساس الحياة والعمليات المتعلقة بها، فكرية كانت، أو جسدية، أو عاطفية أو معنوية. فإذا اختل التوازن بينها، لا نستطيع أن نتنبأ بما يمكن أن يحدث. ذلك بسبب تداخل هذه التفاعلات. ولذا لا يمكن أن نجزم بأن السرطان لا علاقة له بالحالة النفسية، وأننا لن نكتشف وجود هذه العلاقة في المستقبل".

توقف عن الكلام لحظة كأنه سرح. قام وعاد حاملاً سبتاً صغيراً فيه حبات من البرتقال أمسكت بواحدة منها وفحصتها. كانت لا تزال

خضراء. غرست فيها أسنانها. ظل يتابعها وهي تنزع منها قطعاً صغيرة وتمضغها إلى أن أتت عليها ولم يبق منها سوى الألياف. رفعت رأسها فلمحت لمعة في عينيه.

قالت:

"أتبكي على "سحر العمري"؟"

قال:

"عليها أو على نفسي".

«قالت لي "نرمين الصباغ" أن هناك إشاعة تقول بأن "سحر العمري" كانت على علاقة "بحلمي طرخان" أيام الجامعة. ألم تقل لك شيئا يبرر تحفظها إزاءه".

ألقي إليها بنظرة طويلة كأنه يوزنها فاحمرت وجنتاها. هز كتفيه.

"أظن أننا وصلنا الآن إلى آخر المطاف. لا تنسى أن تبعثي إليّ بنسخة من الرسالة قبل تقديمها. ففيما يتعلق بي ربما توجد أشياء أفضل ألا تذكر".

"بالطبع... علاقتي بك لا تسمح بذلك".

نظر إليها كأنه لم يسمع.

"منذ مدة توقفت عن التسجيل. لماذا؟"

ترددت.

"لأنني قررت أن أحذف الجزء الخاص بك".

«حملق فيها بغضب. "تحذفي الجزء الخاص بي بعد كل هذا المجهود"؟!

"رأيي أن وضعه في الرسالة خسارة .. سيصرون على تحويل ما قلته لي إلى مادة جافة بلا حياة ,وبلا معنى. ألم تقل لي في أحد الأيام

أننى اخترت أن أجرى هذا البحث لأننى أريد أن أصبح كاتبة". حملقت فى حذائها. "حملتنى قدماى هذه من "شبرانتنا" إلى الجامعة. لكن مشوارى الحقيقى بدأ منذ اليوم الذى حملت فيه إليك قلباً أحب ما كتبته أنت ... ألا تريد أن تعرف اسم المسرحية؟"

لمح شعاعاً بنفسجياً فى عينيها ... قالت:

"عطر البرتقال الأخضر".

وقفت تنتظر المصعد. قبل أن يضئ السهم الأحمر فوق بابه. قالت:

«أشكرك لأنك لم تنس البرتقال، احتفظ بما تبقى منه. سأتصل بك باكر".

لم يرد.

قالت فجأة:

«أريد أن أقبلك... هل تسمح لى بذلك؟" ودون أن تنتظر الرد خطت نحوه حتى أصبحت قريبة منه. أحس بشفتيها تلمسان شفتيه وبدفئها يسرى إليه.

أضاء السهم الأحمر فوق باب المصعد وقبل أن تدخل إليه قالت:

"هناك سؤال وجهته إليك فى أول لقاء لكنك لم ترد أبداً عليه. هل يستطيع الإنسان أن يعوض ما فرط فيه من قبل؟"

لم يرد... ظل واقفاً حيث هو إلى أن اختفت داخل المصعد فاستدار وفتح الصندوق ليخرج البريد المتراكم فيه ثم خطا داخل الشقة وتردد فى الصمت صوت الباب يغلق.





أنا الذى رأى

للكاتب العراقى

محمود سعيد

تصدر: ١٥ أغسطس ٢٠٠٦



عن المؤلف

- د. شريف حتاتة كاتب روائى، تخرج فى كلية الطب بجامعة القاهرة (١٩٤٦).
- انضم للحركة اليسارية وكانت له نشاطات سياسية واسعة تعرض بسببها للنفى والسجن عدة مرات.
- تقلد عدة مناصب منها عمله كرئيس للفريق من الخبراء عن الهجرة والسكان بمنظمة العمل الدولية وكأستاذ زائر بجامعة ديوك الأمريكية.
- اشتغل بالصحافة المتخصصة، فعمل نائبا لرئيس تحرير مجلة «الصحة» (١٩٦٩ - ١٩٧٢) ونائبا لرئيس تحرير مجلة «نون» النسائية (١٩٨٧ - ١٩٩٠).
- تنوعت مؤلفاته ما بين: أعمال روائية وأدب سيرة وأدب رحلات ودراسات سياسية وفكرية.
- كتب سيرته الذاتية فى ثلاثة أجزاء بعنوان «النوافذ المفتوحة» صدرت أعوام ١٩٩٣ - ١٩٩٥ - ١٩٩٨ واكتسبت شهرة واسعة لصراحتها وصدقها الفنى والإنسانى.

عن الرواية



□ تأتى هذه الرواية الجديدة للكاتب د. شريف حتاتة بعد ثمانى روايات صدر أولها عام ١٩٧٤ بعنوان: «العين ذات الجفن المعدنى» وصدر آخرها عام ٢٠٠٢ بعنوان: «عمق البحر» وكلها روايات يختلط فيها العام بالخاص، والسياسة بالحب، والفكر بالواقع يقدم الكاتب خلالها أفكاره وشهادته على الحقبة التى عاشها وانفعل بها وشارك فى أحداثها.

ويدور محور هذه الرواية حول علاقة حب وفكر بين كاتب روائى قرر اعتزال الحياة الأدبية «يوسف البحراوى» وباحثة شابة «سحر الموجى» تحاول الولوج إلى عالمه وإخراجه من أزمته الفكرية، وخلال ذلك تجرى أحداث الرواية على خلفية سياسية وفكرية فى حقبة هامة ومصيرية من تاريخ مصر هى حقبة السبعينيات ومطلع الثمانينيات. ونحن نمسك بمفتاح الرواية التى تردده بطلة الرواية لكلمة يوسف البحراوى كاتبها المفضل الذى أحبته «أعشق غرس أسنانى فى قشرة البرتقال الأخضر»!